شاكر الأنباري

الراقصة

رواية

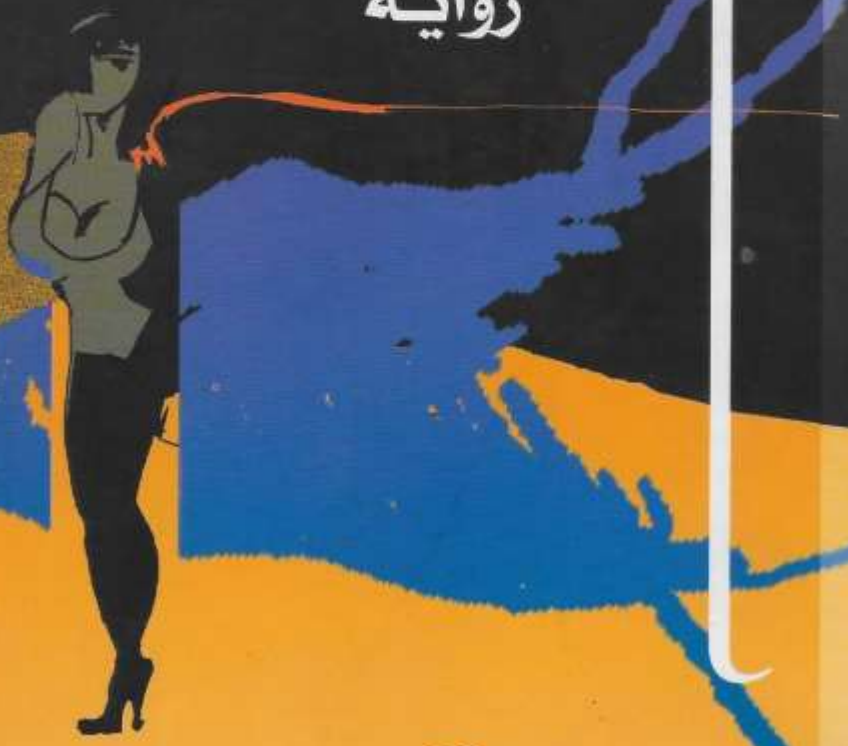

اسم المؤلف : شاكر الأنباري
عنوان الكتاب : الراقصة
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٣

الحقوق محفوظة

Author :Shaker Alanbari
Title :The Dancer
Al- Mada P.C.
First Edition : 2003

Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

جلبوه الى منطقة الشيخ محي الدين، الراقدة في ظل جبل قاسيون. اجتمع في موكب التشييع خلق كثير. البعض لم يعرف سابقا. والبعض يمتلك سحنات غريبة، عيون قوزاقية ووجوه مغولية، كما لو انها تحدرت قبل أيام فقط من سمرقند و بخارى وبلاد ماوراء النهر . كان نعشه محمولا في سيارة دفن الموتى، تغطي السيارة باقات ورود ونعوات. وفي مكبر الصوت يذيع شيخ كان يجلس في المقدمة نبأ موته على المارة والبيوت والأشجار والشلة الحزينة: انتقل الى رحمة الله تعالى، المفكر الكبير الدمشقي رؤوف وحيد الدين. ظل يرددها بلازمة تثير الضجر، وكانوا يمشون وراء النعش، في أزقة الشيخ محي الدين المضاءة بنور خفيف يترشح من السطوح والمشربيات وفتحات الأسيجة المغطاة بعساليج النبات، متجهين الى المقبرة، بتعابير غير مصدقة موته المفاجئ هذا. رؤوف وحيد الدين؟ من هو الرجل الذي نال هذا الاهتمام كله؟ الوجوه المستطلعة من الشبابيك تسأل ذلك. العجائز الماشون وأوراق البرتقال المتهدلة على الأسيجة ومصابيح الشوارع وحمام مئذنة الشيخ والشحاذون الواقفون على درجات المدخل وباعة الخضار والأطفال الراكبون على دراجاتهم الجديدة. من هو رؤوف وحيد الدين المفكر الكبير الدمشقي؟ هل استطاعوا رسم صورة صادقة عنه؟ وكيف يجلبونه الى الحياة مرة اخرى كي يعيش بينهم؟ كان لكل واحد من الشلة رؤوفه

الخاص، لذلك يصبح صعبا تجميع اشتاته وشظاياه. كل رؤوس الشلة، الماشية وراء النعش، كانت تفكر بالمسألة ذاتها.

في لحظة توقف بسبب الزحام، اقترب زكي من المنادي وقال له بسخرية: صحح قولك ياعم، قل: انتقل الى رحمة الله تعالى المفكر الدمشقي الكبير رؤوف وحيد الدين، فذلك أنسب لغويا. أوشكوا على الضحك من ملاحظة زكي، لكن حزنهم لم يتح لهم ذلك. انهم في حضرة الموت، يودعون معلمهم وصعلوكهم الكبير، وملك التقمص وبطل الحكايات. صعد الموكب المؤلف من سيارات فخمة وتاكسيات وسرفيسات، باتجاه المقبرة، اذ سيجاور، كما أوصى لأقربائه، ملك التصوف، الغريب الذي جاء من الأندلس ومات في سفوح قاسيون. حدثهم كثيرا عن الشيخ محي الدين بن عربي، وكان يحفظ نصوصا وأشعارا له، تمجد الحب والجمال، وكثيرا ما وجدوه في الحضرة جالسا يحدق بذلك القبر المجلل بالأقمشة الزرقاء، الذي تهيمن عليه رائحة غريبة تدخل الروح في محراب الوحدانية: روحي تستقر هنا وتهدأ، كان يقول لهم، ولم يأخذوا قوله بجد، فرؤوف يخمر ويقصف ويلاحق النساء، فكيف يَصِحّ تصوفه؟ الإنسان متناقض، يقول لهم، في قلبه الخير والشر، الله والشيطان، يسبح مرة في الحضيض ويتسامى أخرى الى سماوات النبل والعقل والفضيلة.

في الطريق أعلمهم رجل دين كهل، معتكر التعابير، ان مقبرة الشيخ مكتظة ولا تستقبل أموتا اضافيين.

هل عرفوا أن رؤوف صعلوك كبير، وسكير لا يجارى فرفضوا دفنه جوار الشيخ محي الدين بن عربي؟ ام ان الخبر صحيح؟ رجّحوا الاحتمال

الثاني، لأن رؤوف معروف في المدينة بشكل واسع، والدليل هذه الحشود الكبيرة التي رافقت جثته من مشفى المواساة نحو المقبرة. قرّ الرأي أخيرا ان يدفن في مقبرة جبل قاسيون، فهي الأقرب الى الموكب. وهكذا اتجهوا الى هناك، بعد ان صلوا على الجثمان صلاة الميت بأحد الجوامع الصغيرة، الموجودة في الحارة المجاورة. حملوه مشيا، فالسيارات لم تعد بقادرة على الصعود الى الجبل. هل يعقل انهم يحملون رؤوف للمرة الأخيرة؟ وهل يعقل أنهم لن يصغوا بعد اليوم الى حكاياته عن ماغي البارميد، وقصص شارع شيكاغو، ومغامراته مع لوطيي مشرب الكرنك؟ ومن سيحدثهم عن اسرار النساء في الحمامات، عن الأرامل والعوانس والمطلقات والمراهقات؟

زكي كان يمج سيكارته ويبكي. خضبت الدموع لحيته المشذبة التي كانت تعطيه سيماء لص. ابراهيم السمكري يحدق في الحمام المتطاير فوق الجبل. خليل تسير على وجهه افكار مليئة بالشك والريبة. أكرم لداية لم يشارك في التشييع اذ سافر الى ضيعته القريبة من الجولان. كان الجميع يعتبر ان الميت يخصه وحده. لكن هل مات رؤوف حقا؟ سؤال كبير يظلل الوجوه بوضوح. المفكر الكبير الدمشقي، انهم يغلطون حتى في وصفه، هذا الغريب ابن البحصة وعين الكرش وسوق الخيل، الذي قدم من اندجان وبخارى، المعطر برائحة الرز البخاري وتوابل الجبال العالية. ملك التقمص، صاحب أطول مسلوت في الوجود، المدخن الجبار، عاشق النساء، وعاشق الليل وقاعه. قائد الصعاليك غير المتوج، الذي كان واحدا من مئات، يفضلون قصيدة النثر، ويعيشون في الروايات الفاضحة، ويشربون الأنخاب لجان جينيه ومحمد شكري وباراغاس يوسا

وكواباتا، الذي انتحر من السأم. واحد من شموع دمشق في حلكة الحياة. الصعاليك الملعونون الذين يتندرون على كل من لا يكتب قصيدة عن الجنس والحياة الطالعة من الوحل، ولا يتصعلك مثلهم في الحانات والأزقة. يتندرون على رؤساء التحرير والمحررين الرسميين والصحفيين اللابسين أربطة من حرير ويسيرون خلف رجال الأعمال بذل وخنوع. يتندرون على راكبي السيارات الفارهة الذين يجلسون الفتيات جنبهم ويتجهون الى الطرق البعيدة. ويهجون دون كبرياء انفسهم ايضا، فهم ولدوا في زمن ردي». كان من طينة تعرفها الندل من كتبهم وصحفهم ولفتاتهم، من كآبتهم المفرطة، ومن جوعهم احيانا. يعرفهم عمال الحانات جيدا لأنهم لا يفقهون شيئا من رطانتهم. ادونيس وسعيد عقل وماركيز وت اس اليوت وسلمان رشدي وفوكوياما وفوكو ودريدا وبورخس ونيكيتا وباسترناك وسعدي الشيرازي، وسعدي يوسف، ومحمد الماغوط. رطانة لا يستخلص منها المرء اي معنى. لذلك يتركونهم بحالهم ولا يغشونهم في الحساب، لأن صعاليك دمشق يدققون على الفاتورة كما يدققون الجملة المكتوبة. فعلا حدثت ثلاث شجارات بسبب الفاتورة، واحدة في حانة بغداد والثانية في قصر البلور، والثالثة في مشرب الف ليلة وليلة، فما ان يشعر الندل ان زبونهم سكران حتى يرونه الأعاجيب. لن يفيد بعدها ابو حيان التوحيدي والجاحظ وباسترناك ورامبو، فالنقود هي النقود.

مضى ذلك العالم المتحرك الى السماء، وما عليهم سوى حمل الجسد الى مستقره الأخير.

من التراب والى التراب، هذا القانون الأبدي الذي لا ينجو منه كائن حي.

وتلك هي المقبرة.

مقبرة قاسيون التي تظلل قبورها شجرة التوت الضخمة. من هنا بدت دمشق مثل بيض نعام. مثل مدينة مسحورة يصعب القبض على تفاصيلها. سيحدق رؤوف من مستقره الى شوارع طفولته وياسمين داره ويمتع بصره بلون المآذن التي تضفي على السهل مسحة من تاريخ قديم.

أين يرقد البديري الحلاق، وأين يقع خان اسعد باشا؟ ساحة المرجة كيف يرصد شيوخها وجنودها وتمثالها الاسمنتي، ويفصله عنها اسراب الحمام الطائرة وريش العصافير وغيوم المساء التي تلّون الأبنية بالذهب؟ سيرقد جنب صديقه ابو زكي الذي دفن هنا، قبل اكثر من ثلاثين سنة. كم تغيرت الأحوال، وكم نثت الغيوم من ثلوج ومطر. كم جرت أحداث وتغيرت حقائق وزالت أوهام. ولدت مدن وزالت بلدان، مضى جيل من الصعاليك الدمشقيين وجاء خلفه جيل آخر. الحياة تندفع الى الأمام مثل نهر، كان رؤوف وحيد الدين يردد لهم هذه الحكمة دون تعب. يرددها كلما أظلم الأفق وانغلقت الطرق.

وضعوا النعش على الأرض تحت شجرة التوت. بدأ عمال الحفر بازاحة التراب. صمت مطبق يرين على الحاضرين، وينطلق بين حين وآخر صوت تكبير يردده الجميع، ثم يعود الصمت الى مستقره. ساق الشجرة كان مرقشا برسائل الحب لعشاق صغار مروا من هنا. قلوب وسهام وقطرات دم تنساب على الغصينات السفلية. جلب تطور الحياة العشاق الى هذه الأصقاع بلا شك. من هنا يطيب العناق والمدينة تبارك الشفاه. سعدو يحب ميساء. وداد ورفيق. محبة دائمة الى الأبد. ذكرى اللقاء الأول، نادية وخالد. ليس في الحياة الا الحب، جملة كتبت بخط كوفي

أعلى من جذر الشجرة بقليل، وكانت الحروف شاحبة نتيجة الغبار والزمن. لا يوجد بين الجمل والعلامات المرسومة على ساق شجرة التوت حرفا س، ح: سامية حبيبتي. فرؤوف لم يجئ الى هذا المكان سوى مرة واحدة، تبركا بقبر ابي زكي الذي دفنته الثلوج وتحولت روحه الى كتلة لهب زرقاء. الحياة لا تتوقف، سيمضي رؤوف ويأتي واحد آخر ليعيد دورة هذه الخليقة. ذلك قانون الطبيعة الصارم. أصوات الرفوش هي الطاغية في المكان. وجوه الأصدقاء حزينة صامتة، مطرقة، تنظر الى النعش المسجى على التراب.

الموت له حضور. له رائحة. يعانقه الانسان كل يوم الا انه لم يستطع جلاء سره. آلاف السنين وهو يفتك بالبشر، وآلاف السنين والأحزان ذاتها. لقد اجتذب رؤوف بملابسه السود وكوفيته السوداء وذلك الملقط الرهيب الذي يستل به أرواح ضحاياه، وتلك الابتسامة الباردة على الشفتين. لن يروا وجه رؤوف الشاحب، ولا أسنانه الصفراء التي لوثها الدخان. رحل عن هذه الدنيا وترك وراءه حكاياته فقط. ربما هي الوحيدة التي تخلد بعده. انطلق صوت الحفارين خائفا: الله اكبر الله اكبر. شاهدوا ثعبانا مرقطا يزحف خارج الحفرة. رأوه يبتعد بين الصخور والأعشاب الجافة، ويتوارى عن الموت. عن رائحته وحضوره وملقطه. استغرب الجميع من هذه العلامة وعدّها البعض فأل خير، توحي بأن الميت سيدخل الجنة لا محالة، فيما عدّها البعض الآخر دلالة سوء، تعني ان الأرض تحتج على استقبال الميت. لكن بين كل ما جرى اتفقوا، على الالتقاء في مشرب الكرنك لكي ينعوا، وعلى طريقتهم الخاصة، صديقهم المفكر والصعلوك الكبير رؤوف وحيد الدين. لن يذكروا هذه

قليلة سوى حسناته، اما دعاواه وأكاذيبه ومبالغاته الفلسفية فسوف يستذكرونها في وقت آخر. على الأقل بعد ان يجف تراب القبر، وتزول وحشة الفقد.

قال زكي:

- سنترك كأسه مليئة، ولا نتكلم الا عنه. بهذا نؤدي قليلا من واجبنا تجاهه. سأتقمص لكم شخص رؤوف وهو يقص لنا حوادث خماسات وطرائف اللواطيين في سوق القرماني. ضحكته المجلجلة وكلامه حين يسكر واشاراته المبتذلة عن الجنس. لكن وكما يقال، اذكروا محاسن موتاكم.

- أنا سأكتب عنه رواية يوما ما. قال خليل.

- تخيلوا أننا سندخل مشرب الكرنك هذا المساء ونشاهده جالسا عند النافذة المطلة على ساحة المرجة. قال ابراهيم السمكري وهو يفتل شاربيه الأشقرين.

دفن رؤوف كما ينبغي لأي ميت ان يدفن. سوّي التراب على القبر، ووضعت شاهدة صغيرة من المرمر على رأس القبر، ورش الماء على التراب. وبدأ المشيعون ينسلّون واحدا واحدا، بين الصخور والمنحدرات، هرب من رائحة الموت الفاشية بين القبور.

بعد هذه اللحظة لن يجد اي فسحة لتقمص الأشياء، كما فعل طوال حياته.

لقد تقمصته الأرض اخيرا. وسيتقمصه زكي في مشرب الكرنك.

لمح زكي من خلال دموعه الخفية وجه رؤوف يطوف على حدبة القبر، ويمتزج بأغصان شجرة التوت. حطت عصافير جديدة على الأغصان بعد رحيلهم.

وفي سماء المدينة التي كانوا يبتعدون عنها، نزولا الى الأزقة والحارات والشوارع، سرب حمام ابيض يطير بحبور، في الفضاء المحصور بين مساكن برزة ودمر.

هل كان ذلك السرب أرواح رؤوف المتعددة، الظامئة الى الحكايات؟

ام هو تقمصاته التي حاول عبرها ان ينتمي الى مدينة أحبها، كما لو كانة ماغي الراقصة، ملكة شارع شيكاغو، وعاشقة زنوبيا، سيدة تدمر البائدة؟

* * *

في ليلة موته، وقف رؤوف وحيد الدين مسحورا أمام تمثال صغير، احتل منتصف الصالة. جرّه التمثال الى ماض بعيد، وأمكنة دار او جلس فيها محدقا الى روح الجمال، في خمارة الوردة الزرقاء، متوحدا مع المرأة الخالدة التي حلم بها ليالي طوالاً. كان في ذهنه وجه زوجته فاطمة المتوفاة، وماغي، وزنوبيا ملكة تدمر، وسامية، والمرأة الغامضة في مساكن برزة، وهي من أطلق عليها ماغي المعاصرة، ووجوه كل النساء اللواتي عرفهن خلال ثلاثين سنة من بحثه عن الأنثى، وعن الأم ذات الرحم الذي يحن ويتوق الى دفئه. تمثال ملكة تدمر، زنوبيا، وهي تفرض جلالها على الحضور، وتبعث الغيرة في قلوب النساء. وقف يتأمل ذلك الجلال بصمت وعمق. تمثال أنيق، ناعم، يشع بكبرياء الحجر العتيق. الأنف قنطرة رومانية، والرقبة مزمار هندي، والوجه كمثرى من ضفاف العاصي، والعينان بلحتان من بصرى. الحجر يموج بالمعارك والصهيل والغزوات والموسيقى والأصوات. لعالم مات منذ قرون بين الرمال

والنخيل، وتحت خفاف الجمال. حضارات قرأ عنها، وشاهد أوابدها وقرأ حروف لغتها في المتحف الوطني مع فاطمة، أو عيانا في الصحاري التي شهدت غزوات وعناقات وصلوات ترفع الى السماء.

بانت قسماته موشحة بالوحدة، وهي ترشح من اعضائه، لترسم هالة حوله. تراها الشلة وتتحسر، فليلة رؤوف محفوفة بالمخاطر. الصالة مكتظة بالنساء المتبرجات، والرجال الأنيقين. العطور تفوح في المكان. عطور نسائية طاغية، تفتح الشهية على الغزل والحب ومسارقة النظرات. سورة وتماثيل، أقراط وفضيّات للطعام والزينة، سيوف وخناجر. خلاخيل وآنية شراب، مزيّنة بالصور والوجوه والأشكال. لقد رأوا أجواء مثل تلك مرارا، الا أن لهذه الليلة طعمها الخاص. هناك شبح غامض يتجول بين نصخور والأقراط، ينسل الى الزوايا العاتمة، له حضور غير مرئي. لكن ماهو؟ ثمة ملقط يداعب روح رؤوف القلقة. وثمة قبعة سوداء لها حفيف كما لو كانت شجرة توت متنقلة. وسامية تتنقل بين الحضور مثل نحلة. تعرض جسدها النحيل المنتهي بمؤخرة ثقيلة، وتتلقى نظرات الاعجاب وتسمع كلمات الغزل. شعرها يميل الى الشقرة، والابتسامة تمس شفتيها مسا رقيقا. رفعت الجبيرة عن يدها المكسورة، واحتفظت بها للذكرى، هي وتواقيع الشلة، ومقطوعاتهم الشعرية، وحكمهم، التي لوّثت الجبس الأبيض بدكنة الأحبار. كعهدها سابقا، كانت متأنقة، معطّرة، تضع ظلاء الروج على شفتيها، وابتسامتها الموحية، والساحرة، لا تفارق وجهها. لم تصطحب زوجها هذه الليلة، وغرضها واضح. تحاول ان توهم نجميع أنها الليلة حرة.

وقفت لحظة مع رؤوف وحيد الدين المتسمّر أمام التمثال، وهمست

شيئا ما بصدد زنوبيا. لم يستجب رؤوف لهمسها، لم يشم ياسمينها الذي جلبته الى بيته، ولا ود سماع بوحها عن صديقاتها اللواتي يتناولن اسرار الرجال مثل فاكهة صيفية. تركته بكبرياء، وبدأت تتحدث مع واحد من الشعراء الذين يكتبون قصائد الغزل ويحفظون اشعار ابي نؤاس والمتنبي. ظل رؤوف منتصبا عند التمثال ردحا طويلا، كأنه غائب عن الحضور. غائب عمّن يدخل من الباب الزجاجي او يخرج. غائب عن الصور المعلّقة على الجدران والأصص القديمة والأطواق التي عمرها أكثر من ألف سنة. يهيمن عليه سحر التمثال الناث لكبرياء الأنثى التي كان يبحث عنها خلال حياته الطويلة. او على الأغلب سحر الماضي، فهو يمارس عليه سلطانا غير مفهوم: الكتب القديمة، زجاجات الخمر المعتقة، الحكايات الأسطورية، المقرنصات والبلاطات الصخرية في أرضيات الشوارع، وقبور القديسين والأضرحة والتماثيل. ربما لهذا السبب كان يعود الى كتاب البديري الحلاق الذي كتب فيه مذكرات دمشق قبل مئتي سنة. وكثيرا ما كان يقضي نهاره دائرا في الأزقة بحثا عن بلاطة مرسومة، أو باب مقرنص، او رازونة مؤطرة بالخشب المفضض، او حكاية قديمة يسمعها من فم سقّاء عرق سوس، أو بائع ترمس في حارات الشيخ محي الدين أو ساحة المرجة.

كيف انطلت عليه الخدعة وصدّق ماغي؟ ماغي ملكة البارميدات في شارع شيكاغو قبل عشرات السنين؟ هل وجدت زنوبيا يوما؟ بل هل وجدت ماغي الراقصة وعشيقة نسيم بيك، حقيقة، ام انها طيف ذكرى عمّرت رأسه كل هذه السنين؟ كان مرهقا، شديد الشحوب، كامد البشرة، وتلك سمات لم تبن في محياه للمرة الأولى. بدأت تتراكم في روحه بعد

وفاة زوجته فاطمة مباشرة. هجس الجميع انه يترنح من السكر، او من الخوف، او ثمة شيء غامض يلحّ عليه. يعاني كما اشيع، من أمراض في الكبد، وتلبكات في الدورة الدموية، وأرق دائم يجعله ينتظر كل يوم تقريبا طلوع الفجر. الشيخوخة جزء منه، دراكولا دمشق التائق دائما الى لحم بض، والى حكايات يعيد روايتها على الشلة، صعاليك البارات والمقاهي والشوارع وجسور بردى الناتئة في الليل مثل اصبع خرافي. ورؤوف رغم انه صاحب الشلة ومحدثها وزعيمها، الا أن حياته الشخصية والعائلية يلفّها الغموض. لم يعتد الحديث عنها. فعلاقته الخاصة مع زوجته فاطمة لم يعرف كيف جرت، كيف التقاها أول مرة، ولم تزوجها، وهجر موبقاته في شارع شيكاغو، ولا اين ذهب ابناؤه وكيف يعيشون. يتكلم عن كل شيء الا هذا الجانب. الجانب العائلي ظل غائما حتى مماته.

هل أحب فاطمة بعمق كما يدّعي؟ وهل كان يراها في أحلامه، ويراها في الشوارع وعند ساحة المرجة، وقريبا من ضريح شيخه المتصوف محي الدين بن عربي؟ تلك الغازه، وخفاياه، اذ كان يحوّل كل نبرة من صوته، وكل سلوك يقوم به الى لغز وسر، مثل وقفته الصنمية أمام تمثال زنوبيا. قطعا يوحي له التمثال بجمال بعيد، أخبرهم سابقا عن زيارته في المتحف الوطني ليراها. كان ذلك منذ سنين خلت. قبل ان تموت دطمة على اوتوستراد المزة. جمال تلك الملكة التي ضمّت في روحها ألق النساء جميعا. هل كان التمثال يذكّره بماغي، ملكة شارع شيكاغو فقط حسب ادعائه؟ هل يذكّره بتلك الحضارة التي غيّبتها الرمال؟ كم حدثهم عنها، وكم وصف محاسنها، اثناء جلساته معهم. هل نقله الضوء

الساطع، المنسفح من الكاميرات، وألحاظ الصبايا والعطور وعرق الآباط وهلوسة الحضور، الى شحوب حانة الوردة الزرقاء في شارع شيكاغو، وحضرته تلك الرفقة القديمة، ومن بينها التنين وأبو الفهم وأبو واكيم وخوذ عليك، والتصبحجية، وقبضايات ذلك الزمان؟ جامع الطاووسية وسوق التبن ومتاجر الصابون التي امتلكها ابوه ذات مرة؟ ساحة المرجة وجسر الهامة، وتلك التجليات عن فلسفة التوحد والوحدانية؟ يصعب معرفة ذلك حتى لو تيسّر للمرء الدخول الى رأسه. انسان يمتلك ابعادا لا تحصى، ومقامات ومنازل تتغير بين الثانية والثانية.

مرة يكون في متحف يشاهد أبطال الاغريق ومرة في مشرب الكرنك يحدث الغرباء عن نفسه بصيغة الغائب، متنكرا مثل لص، متوجسا كما لو أنه يحوك مؤامرة على ملك من الملوك. اما اذا كان في حالات تقمصه فمن المستحيل امساكه. رؤوف وحيد الدين ملك الصعاليك، رفيق التصبحجية، كاتب القصائد في قصر البلور، معلم الشلة وراعيها، الداعر المتنكر في زي متصوف من أتباع محي الدين بن عربي. عادة ما يكون صرصورا أو ذبابة أو قمة جبل، قطرة ماء أو شعرة في ساق امرأة جميلة. نجمة أو شعاع شمس أو ظل شجرة زنزلخت. وهذا هو رؤوف وحيد الدين، لغز الشلة وأستاذها في فن الحديث. تاريخ المدينة المتحرك، وجوّال الشوارع. المنهك من العشق، فارس باب توما وجليس الندامى في نادي الصحفيين ومقهى الروضة ومقصف ألف ليلة وليلة. قبل سقوطه على الأرض، كانت أضواء التصوير تحيل الصالة الى جحيم. جحيم من الحرارة والأشعة والهواء المخنوق. مقابلات مع فنانين واستطلاع آراء وحوارات مع كتّاب وزائرين حول المعرض، او حول

الحضارات القديمة. النظرات تتلاقى وسط كل ذلك، تتصافح وتتنافر، أو تتادي وتصبح. صحفيات صغيرات يغطين المعرض، يدونّ الآراء على الورق أو عبر مسجلات صغيرة. وثمة احساس غريب لدى أصدقائه، ان امرا جللا سوف يحدث. وقفته ازدادت غرابة وتسمّر امام وجه زنوبيا كقطعة من الصخر. لم يخمن احد ان ذلك الاحساس سوف يتركز على رؤوف، المفكر الفذ وملك الصعاليك الكبير، كما سموه في مجالسهم الخاصة.

جاء سقوطه مدويًا، رجّ وخلخل اتساق الصالة مثل زلزال مفاجئ. سقط كأنه كتلة من الصخر. قبل ان يتهاوى جنب مرمر زنوبيا، مد شفتيه الى الوجه، وغاب في عناق طويل. اللحم البشري يضخ الحرارة في تعاريج المرمر. عروق جافة تلتحم بعروق ندية. وجذب سلوكه ذاك أنظار الجميع. لقد فقد رؤوف عقله دون شك، والا كيف يضيع في قبلة طويلة مع امرأة من مرمر؟ قبلة النساء والصبيان والهواء المعبأ بالحياة. قبلة تمضي الكثيف الذي انسرب من خلاياه، بعد ان جف ماؤها ومالت الى برزخ الموت. سقط بعدها على البلاط، ومد يده نحو تلك المرأة الخالدة ليحتضنها، سوى انه فشل في الوصول اليها. فشل، كما فشل اثناء حياته، في ايجاد ذلك الجمال الخالد الذي ظل يركض وراءه.

كان موهوبا بعبادة الجمال، وتحسسه في أي موطن صغير، وفي تقمصه والانسحار به. يتوق دائما الى تقمّص الجمال، والدخول فيه، تمثّله. الحلول في تلك الأنساق العجيبة الداخلية التي تجعل من انسان ما، من طبيعة ما، من لوحة ما، شيئا جميلا وساحرا. الأمر الوحيد الذي استطاعوا تقديمه له، اثناء تلك اللحظات الحرجة من سقوطه، هو الاتصال

بالاسعاف لنقله الى المستشفى. جميع الأصدقاء قالوا انها النهاية. اتفقوا ان تلك السمات المريعة التي شاهدوها الليلة لا يمكن ان تكون الا لميّت.

استنفد تاريخ هذا المكان قال زكي، ولم يعد لديه شيء آخر الا الرحيل. يكفيه انه عاقر باعة الفول والفلاسفة والمؤذنين والكاتبات وبائعات السجائر واللوطيين والفنانين ومعقبي المعاملات وعربات العوجا والترمس ايام الشتاء. قرأ البديري الحلاق والأغاني وابن رشد وسرفانتس وملاحم الفرس وكتب الصين والهند ورسالات الرهبان في معلولا وصيدنايا، أوائل عهدهم بالدين الجديد. وقال اكرم انه منذ ان اخفق مع ماغي المعاصرة، التي حدثهم عنها قبل اسابيع، شعر انه لم يعد لديه ما يفعله في هذه المدينة. وماغي المعاصرة، شبح جمال تعلق به رؤوف لشهر كامل ثم تكشف عن فراغ ووهم: يشربن عندك القهوة وينمن في سريرك ويلهثن من الأثارة ثم يرفضن مضاجعتك: تلك جمل رؤوف، دأب على ترديدها في كل جلسة: تسيل شهواتهن مثل نهر العاصي، ويقلن لك قم عني ولنؤجل الموضوع الى يوم آخر. ولكن أيا كانت الحكايات التي رووها عنه، آمنوا جميعا انه ظل لغزا لهم، رغم انه لم يترك تفصيلا في حياته الا فرشه أمامهم. عاش قاع المدينة وامتص روحها ليغسل غربته ويولد كائنا جديدا ينتمي الى هذه الشوارع والأزقة والمقرنصات والمآذن. ينتمي الى الشلة التي أحبها، وعاش معها سنوات طريفة، ممتعة، جعلته يعرف الكثير عن حياة القاع، والقاع متشابه في كل مكان. أقلع عن كل ما هو جاد، بعد ان ازداد حكمة، وغزا الشيب رأسه، وما عاد يعبأ لأشياء كثيرة اعتبرها سابقا من المحرمات. تجاوز عمره الستين سنة،

وفاء لأيامه الماضية، وللأشخاص الذين صار بعض منهم تحت التراب مثل ناصر النعساني الذي عشق فتاة المقبرة حتى جذبته اليها، ونفاطمة التي ماتت بين يديه تحت أشجار المزة. يروي افضل من جميع مجالسيه الكثير من القصص والحكايات، تدور حول معارفه وأسلافه ومجايليه، او قراءاته. ومن يجالسهم رؤوف كانوا الصعاليك، حتى لو تبوأوا مناصب أو نالوا من الرياسات والأمجاد. لهم نكهتهم الخاصة. كانوا يشربون الجن والريان، الجعة والنبيذ، يخمرون في قصر البلور، وسط باب توما ثم يفيقون صباحا في حلب. يقذفهم رصيف الى حانة في شارع بغداد، سرعان ما تلفظهم الى بيوت تتلطى بالجبل وهناك يتذاكرون عن النساء. لا احد يقترب منهم الا اذا كان مفلسا، فهم يستدينون حق الطعام والمازة دون ان يرجعوا ما استدانوه. لقد استدان زكي ذات ليلة باردة جزمة من جامع الشيخ محي الدين ولم يرجعها، اذ كانت جزمة جديدة. عنّفه رؤوف وقتها قائلا: ايها الخسيس كيف تسرق شيخي؟ لا يعرف المعلم ان زكي لا يمتلك ثمن شراء حذاء جديد. ولا يعرف انه يسرق الكتب كذلك. وهو رغم تعلقه برؤوف، وفسره البعض ان الأمر يتعلق بالمصلحة، الا ان زكي لا يبوح لرؤوف بكل ما يعرفه او يقوم به. فرؤوف اذاعة متنقلة، ومطحنة للكلام. كما استدان رؤوف يد سامية، وهي المتمردة، التي تخون زوجها بعلمه، فكتب على جبيرتها رسالة حب لا تحمل سوى كلمتين: سين حاء. أوضح بعد يوم ما عناه بذلك: سامية حبيبتي، لكن السؤال هو: هل فهمت سامية رموز الرسالة؟ ماتت زوجته وضمة ونذر نفسه للمتعة. كان يهوى الغوص الى القاع، كما يردد. يرغب برؤية الحصى المتلاصف، الطحالب، الطين، الديدان البشرية التي

أنهكها الضوء فقررت الغطس الى القاع. يقول: تخيلوا انكم تعيشون في باطن المدخنة، ووسط لهيب الفرن، وفي ذرة حمص. تعرفون ما يفكر به يعسوب، وما تتأمله قمة جبل قاسيون وهي تطل على مدينة يقطنها ملايين البشر.

هل كان يتقمص دور الصعلوك؟ وهل ضرب حبيبته يوما في شارع مكتظ بالناس، كما كتب في آخر قصيدة له قرأها في قصر البلور، بعد ان شرب نصف لتر، عرقا بيتيا مصنوعا من التين؟ يضربون حبيباتهم في الشوارع أمام المارة والمتفرجين، ويرجعون ليلا الى بيوتهم منهكين من العشق والندم والغيظ. قرأ رؤوف هذا المفتتح الذي هللوا له أجمعين، واسترسل يشرح السبب. فقال انه انتظر ذات مرة حبيبته في صالة الشعب للفنون، وكان هناك معرض لاحد الفنانين المهاجرين الى أوربا، والصالة حاشدة بالناس من جميع الأجناس والفئات والطبقات. صبايا مبودرات وعيونهن مكحلة وشباب يتطلع ولعابه يكاد يسيل من فرط الاثارة. رائحة الصالة عطر انثوي وأصباغ وأنفاس دخانية. انتظر الحبيبة ساعة فلم تأت. انسل من الصالة هائما على وجهه في الشوارع حتى وصل الى كافتيريا الشام، التي تقع في فندق الشام. رآها جالسة خلف عمود مع مصور فوتوغرافي ملتح، وتبدو عليها البهجة والحبور. وهذا ما أشعل النار في قلبه، وصعّد الدم الى كل شعرة في رأسه. رجع بسرعة وهو لا يبصر ما أمامه الا بصعوبة. كان ذلك من الغيرة والغيظ والأسف.

ارتطم بعمود، ورجلين وصندوق قمامة، وصندوق تلفون عمومي، وصحفي يصوّر واجهة محل قديم، وامرأة من الكويت جاءت سائحة،

خلال المسافة من فندق الشام الى صالة الشعب. كان منوما مغناطيسيا من الغيرة. كيف ينوّم احد معناطيسيا من الغيرة، فهذا امر لم يسمع عنه لا من فرويد ولا من يونغ. هذه ظاهرة عجائبية مر بها في الصالحية. وكعادته لم يشر الى الزمن الذي حصلت فيه الواقعة، اذ هو ينفي الزمن من حكاياته، فلا يعرف احد ان كان ذلك قد حصل في شبابه ام قبل سنة. ولا أشار الى اسم الحبيبة، هو المتكتم في شؤون الحب. دخل بين الحشد سابحا في عالم من الضباب واليأس والخوف. خاف ان تأتي حبيبة الى الصالة. بهرج العينين وطلاء الشفتين ورائحة الابطين وذينك القذالين المنسدلين على الخدين، بأبهة الداعرة التي تلعب على الرجال. ما الموهبة الوحيدة التي يعتز بها مع نفسه، الا وهي التقمص، فقد فارقته تماما، انه لن يستطيع الدخول في رحابها وهو على هذه الحالة من التشتت والغيظ والتسطح. انها تحتاج الى التوحد والتركيز والصفاء والارادة، وهي امور لا تنسجم مع الغيرة. ودّ لو تمضي، وتغيب عنه الى الأبد. خشي ان يفقد توازنه اذا ما رآها. وخشي اكثر ان تواجهه بأكذوبة عن سبب التأخير، هو الذي رآها تجلس مع ذلك الصرصور، كما أطلق عليه في سره. دخل معه الى المجارير، ولامس عبر شاربيه القذارة الباطنية البعيدة عن الضوء. كان هناك رائحة فظيعة. وكان هناك ديدان من كل حجم ولون. كل ما لايلامس النور يسبح في العفن. صرصور يشعر بالسعادة في ظلام المجارير. ذلك المصور الملتحي حوله الى صرصور في بالوعة عتيقة. انفتح الباب وكانت هي، تسمّر في مكانه وجاءت اليه متوعكة بعض الشيء. او تدّعي ذلك. قالت له انا اعتذر لقد نقلنا أختي الى المستشفى، وكان يعرف ان اختها مريضة بالسرطان.

انا لا اطيق رائحة المعقمات والبياضات والأسرّة، كل تلك الأشياء تشعرني باقتراب الموت. عملنا خناقة مع الطبيب لأنه غير مهيأ لاستقبال المريضة في هذه الساعة. هكذا اخبرته بدم بارد، وعيناها اللوزيتان تلمعان مثل ظهر صرصور. غابت الوجوه من امامه، وتضببت الايقونات واللوحات والمشاهد. وتكذب هذه العاهرة ! صفعها أمام الجميع ورأى الدم يخرج من فمها. طار راكضا الى الباب وسط ذهول لم يلتفت اليه. ذهول استولى على الرجال المتأنقين، والنساء المؤطرات بأتكيتات العشق وفنونه.

هؤلاء هم الصعاليك الذين يضربون حبيباتهم في الصالونات والشوارع والبيوت من الغيرة. يعرفون ما يريدون. يعرفون ان الكرامة ان لا تخاف من الخسارة، اذ ليس لديك ما تخسره. لهذا فهم أغنياء. وكان رؤوف الزعيم، وحافظ الأسرار، والشهيد الأول في معركة الحياة. لم يبق له من الذكريات سوى ذكريات أخوانه. شاب شعره، وبرزت الانتفاخات تحت جفنيه، ودب الخدر في مفاصله، وانكمش كي يتحول الى كائن يعيش في ماضيه فقط. عقله تحول الى جزر سابحة في بحر يسمى النسيان. اصبح مثل الكرة الأرضية ثلثها تراب وثلثاها ماء. ثلث ذكريات الصعاليك وثلث عمه ونسيان وشواش وفوضى. رفض رؤوف ثروات ابيه، او بالأحرى ضيّعها في شارع شيكاغو كي يربح حريته وألقه كانسان. وهم مثله ايضا، يكرهون المكاتب الأنيقة والسيارات الفارهة والورق الصقيل الملون الذي يأسر عارضات الأزياء. لا يجلسون الا لعبّ الشراب او لاصطياد الفتيات او للحوارات عن شؤون الدنيا. حتى مشاريع سهرهم تجيء مرتجلة، يفرضها حوار قصير او رغبة مفاجئة لواحد

منهم، او اقتراح غير منطقي يخطر بغتة في رأس من الرؤوس.

* * *

الشلة اياها.

وكان المهندس ابراهيم السمكري يمتلك سيارة فيات صغيرة، ركنها قرب الباب. قال انه لا يخاف عليها من السرقة، فلا احد يسرق سيارة موديل خمسة وثمانين. اصبحت عتيقة حتى على اللصوص. الساعة تجاوزت الثانية عشرة والنصف. رحلت النساء من المكان ولم يعد هناك ما يغري في الجلسة. كلهم ذكور. فما كان من زكي الا ان اقترح عليهم الذهاب الى الطبيعة. قال نتوجه الى الغوطة، حيث الظلام والنجوم والبقر والثعالب. اما رؤوف فاقترح جبل قاسيون، قال نرى البصّارات والداعرات والصبيان، نشاهد الجامع الأموي من ذلك الارتفاع. نتقمص الصخور ونشم نسيما عابقا برائحة البراري والتلال. فيما اقترح أكرم نهاية جسر الهامة فهو ملائم للسكر والقصف، في هذه الليلة المقمرة.

جسر الهامة، قال رؤوف، يليق بالمنتحرين، والساهرين في المدينة. هل فكر يوما بالانتحار؟ سؤال من الصعب توجيهه له لأن أجوبته مراوغة دائما. اقتراح السهر على الجسر ارضى الجميع. تركوا خلفهم غيوم دخان الأراكيل ووجوه الرجال السابحة في ضباب السكر، ونقوش البار الرخيصة واللوحات الزيتية المعلقة على الحيطان باهمال، ورحلوا.

اشتروا فروجا مشويا، ومسبّحة، وعرقا، وسجائر، وصحن مخللات ثم مضوا في طرقات الليل. لم يحسب احد حسابا للوقت. كما لم يهتم

احد للنقود، فعادة يتبرع المقتدرون بما لديهم ويصمت المفلسون. اخترقوا المهاجرين بأحيائه الضاجة، تجاوزوا اشارات المرور الحمراء وغازلوا النساء بالاشارات وتندروا على واجهات البيوت الأنيقة. كانوا كتلة مصمتة من عبث وسخرية وأحلام. وكان الليل في اطراف المدينة يجلب هديرا صخّابا وتهويمات كأنها هطلت من النجوم. ذبالات الأضواء في قاسيون، وألق العمارات آخذان بالتلاشي. نفق من الظلام والهواء والأفكار. السيارة المحشوة كانت تطير الى الهدف، والأنفاس معتكرة بالكحول والغناء. غنوا الدلعونة وذئاب البر وصندوق امين البصرة، وأخذهم سحر الغناء الى أرواحهم، كما هو معتاد.

لماذا يحيل الغناء دائما الى الماضي؟

كيف تتغلغل الكلمات والألحان في تلافيف المخ، وتسترجع أصغر اللحظات الهاربة، وأشد النبرات ضآلة؟

غنى رؤوف قدودا حلبية، بينما تهشم الوجود بآهات ابراهيم السمكري وقد ذكّرته الأضواء وأحاديث النساء برام الله. أنشد أغنيته المحببة: وين عارام الله وين عارام الله، ولفي يامسافر وين عارام الله، ما تخاف من الله، خذيت قليبي وين عا رام لله. وأوشكت اضواء رام الله ان تشع في رؤوسهم من الغربة والحنين. فلسطين تجمعهم دائما. وهذا من غرائب الشلّة.

ركنوا السيارة على حافة الجسر تماما.

عقدوا دبكة مرتجلة، راحت الأقدام تطرق الاسفلت بقوة خارقة. وغنى خليل: خدعوها بقولهم حسناء، والغواني يغرهنّ الثناء. صمت رؤوف، وتهدلت شفتاه وبانت غضون جبهته وخديه. رأوا في ظلال

العتمة وتراجع الأضواء طيف مياه صغيرة ترطب أخاديد وجهه المتعبة. هل جاءت فاطمة الى شاشة رأسه؟ عيناه تنغلان في تلك الكثافة الليلية من أشجار حور وهضاب وصخور. سمعوا فمه يردد مثل ببغاء: ماغي، ماغي، ماغي. هل نطق بذلك حقا ام انها أوهامهم؟

وجسر الهامة طويل، يرتكز على اعمدة عملاقة تذكّر المرء بالأبنية الرومانية الضخمة، رغم ان الجسر بني حديثا. ها هم في حضن الطبيعة. في حضن الطبيعة لا يمتلك الانسان سوى الغناء. فهو يعيده الى الجنة السماوية التي طرد منها. انشدوا جماعيا اغنية فيروز المحببة: يا طيرة طيري ياحمامة، وديني لدمر والهامة. وذلك قبل ان يصبوا الكؤوس. ضحكوا من جديد على نغمات الأغنية وضجيج اصواتهم التي تترشح من فوق الى الوادي. الوادي سحيق ليس له قرار.

في الأسفل غابات من الحور، يسمعون حفيف أغصانها، وتنفتح في كتلة سوادها ثغور مضيئة تشبه الحباحب. هل تحول رؤوف الى حبحبة؟ وكان الجسر عاليا، يرتكز على ثلاث ركائز تعملقت في الضوء الشحيح تتأخذ شكل كائنات خرافية تميس مع اضواء السيارات، وتطلق نفثات من الرعب. لابد ان يكون هناك في القاع قاطنون، او مزارعون، او على الأقل صعاليك من الفلاحين يستمتعون بشرب الشاي او القهوة المرّة، ويتعجبون من الجن المتراقص في الأعلى. سكر أكرم الداية منذ الكأس الثالث. شخ من بين قضبان الحاجز، وتحول السائل بعد أمتار الى رذاذ. قال له ابراهيم: هنيئا لك هذه البولة الفضائية، فضحكوا. ضحكوا على الليل والبول والأشجار، وعلى السيارات الفارهة التي كانت تتجه الى دمشق او الى بيروت. ضحكوا على القمر في عليائه، والجبال البعيدة

وأفكارهم المتناثرة مثل ثلوج قطبية. كانوا مثل دببة تبحث عن حياة وسط هذا الليل البهيم. الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم، رتل زكي ترتيلا قرآنيا ميمية المتنبي تلك، وهو يمج سيكارته ويقذف ربع لتر من العرق في جوفه. صارت عينا رؤوف زجاجيتين، لاصفتين، وقد تذكّر دون شك ماضي عائلته القديم في البلاد البعيدة. شراب وطعام وسجائر ورقص، على اسفلت الشارع حتى تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

هلّ الفجر من التلال الطافية على عجينة الضباب، وهو يطوّق دمشق من كافة الجهات.

- ما الذي يشعر به شخص يقذف نفسه من هنا العلو الشاهق الى الأرض؟

سأل اكرم بعد لحظة صمت نادرة، وكأنه يريد نقلهم الى سموّ فلسفي يفتقدونه. أمر اعتادوا عليه، الانتقال من الهزل الى الجد، أو العكس، هكذا بغتة ومن دون مقدمات.

- سيقذف من اللذة. لأن الموت لذة لا تفوقها لذة.

أجابه خليل وهو يحدق بعمق وجد الى ظلام القاع.

- أظن أن حواسه أجمع، ستتعطل من الرعب.

قال ابراهيم، وفي ذهنه المواقف المرعبة التي واجهها في حياته وشلّته عن التفكير.

- او يتذكر آخر حبيبة هجرته.

استدرك اكرم.

وقف رؤوف وخاطبهم قائلا: بعيدا عن الانتحار، هل أحدثكم عن الوحدانية؟

قالوا هات ما عندك.

والشلة حين تسكر لابد ان تدخل في حقل الفلسفة. يعتبر فلسفة كل كلمة تقال او فكرة تطرح. اذا قال المرء قطة، سرعان ما ينتصب واحد ليبدأ بتعداد فصائل القطط وأنواعها وتزاوجها وكيفية معاملتها توليدها ومن من البشر يشبه القطة، وكيف تتناكح القطط وما هي فائدتها في هذه الأرض. وان قال أحدهم زيتون، فينفتح السجال حول انواع الزيتون هل هو اسود ام اخضر، وأين ينمو وكيف يسمى باللغة الاسبانية وعلاقة الاسبان بالعرب ثم لماذا ذكر الزيتون في القرآن، وماهي فوائده وكيف يتحول الى علف. اما اذا طرح احدهم فكرة الانتحار وعلاقتها بالعقل البشري فلن يقف السجال حتى لو ظهرت عشرات الشموس على الأرض. تأتي كلمة كرنك، فيتبارون في تفصيل مهن رواد الحانات، والحكايات التي دارت هناك، وعدد الشبابيك ونوع الخمر ودخان المكان، والسجالات التي تدور بين الشاربين. كل شيء له معنى ومغزى ويتخذ سمة فلسفية. فهم يؤمنون ان الكون مصنوع من اشارات ورموز ونغمة. يدرك رؤوف هذه الحقائق جيدا بسبب معرفته العميقة بنفوس الشلة، لذلك قاد الحديث اليه. قال ان الوحدانية هي ان تبلغ درجة كبيرة من التوازن، ليس هناك نقص ولا زيادة، وتلك صفة لله. اما تجلياتها على الأرض ففي الانسان الخنثى على سبيل المثال.

جذب الحديث بعيدا جدا عن الانتحار، ولن يقف احد في طريقه. هو سباح الأفكار الماهر. فكره في مكان آخر دون شك. عرفوا هذه الصفة في شخصه قبلئذ، اذ يكونون في موضوع جاد، ثم فجأة ينتقل دون مقدمات الى حكاية او خبر او طرفة. فسّر زكي الموضوع بميله الدائم في

ان يكون مركز الجلسة. مطحنة الكلام ذاك. سألوه كيف يكون ذلك؟ قال: حين يرى الرجل رؤية الأنثى وهو ذكر في الآن ذاته. يملأ ويمتلئ، وهذه لا يجدها المرء الا في مشرب الكرنك، عند الشواذ. حدثه أحدهم، انه يجد خلاصة الكون في روحه، فهو يشعر بشعور الأنثى وبشعور الذكر في الآن ذاته، وتلك موهبة منحها له الله كما ادّعى. تلاحظ الصغير من الأشياء والأحاسيس والظواهر كما الأنثى، لكنك تفكر بالأشياء العامة والكبيرة كما الذكر. بهذا فأنت مكتف بذاتك، مثل الله. الله في السماء، او في الأرض، مكتف بذاته، ذكر وأنثى، سلب وايجاب، فراغ وامتلاء، لا احد يغنيه ولا احد يسلب منه شيئا. هذه الفلسفة الوحدانية تعلمها من صديقه الشاذ في مشرب الكرنك. قال سأحدثكم عنه ذات مرة، لانه فيلسوف ويستحق الاصغاء والتأمل.

انك تجدّف، قال له زكي، لأنك تشبّه الله بالانسان، والفرق بيّن، فما قولك؟ لا فرق، قال رؤوف وسط اشعة الضوء الشاحبة التي بدأت تغسل اشجار الحور في الأسفل، وتضيء حافات الكائنات عند السهل الشاسع. لا فرق لأن الله حالٌ في كل موجود، وفي كل غير موجود، مكتف بذاته، الا تفقهون؟

استرسل رؤوف بحديث طويل، يجمع بين الفلسفة والهلوسة واللواطة والشعر، حتى انهم لم يعودوا يفقهون شيئا مما يقول.

تلك تجليات كان يصلها في حالات السكر الشديد، او حين يغضب من مسألة ما. لكن في هذه اللحظة عرف الجميع انه سكران، صارت كلمة فلسفة فسفسة، وحور، حارة، ومساكن برزة مساكن فرزة، والمرأة مرآة، ورغم كل شيء فالفجر جميل. جميل حين يراه المرء من جسر

تهامة. فبكورة اليوم الجديد يشمّها الانسان في الهواء الرقيق، وفي وسان الطيور في السماء الرصاصية التي تلوّنت من الشرق بحمرة خفيفة. لهذا راود الجميع احساس أن يوما دسما من أيامهم قد مضى دون رجعة. ربما لن يتذكره أحد. وفي ذلك الفجر بالذات، اكتشف رؤوف بقعة الضوء في حمّامه.

تلك البقعة ظلت مدار حكايات مغرية، عاشوا وهم في شوق دائم لسماعها.

* * *

كانت حياة رؤوف سلسلة طويلة من أحلام اليقظة. يدمج الخيال بالواقع، الأحلام بالوقائع، التقمص بالأحداث. فيتحول الى خلطة بشرية، تستعصي على أكبر الفلاسفة. زار عددا لا يعرف من الأمكنة في الكرة الأرضية. رأى الأمازون ببغاواته وسعادينه وهنوده الذين نسيتهم الايادات. عاش في ثلوج القطب الشمالي ليصطاد غزال الرنة مع المغامرين الاسكندنافيين، وكاد الثلج يخنقه لولا نار الأسكيمو التي لا تطفئ. اصطاد البفالو مع رعاة البقر في صحارى أوكلاهوما، وذاقت تعصابة من مسدسه أصناف العذاب. ضحك على شارلي شابلن وهو يأكل السباغيتي في مطعم فخم، او وهو يطبخ جلد الحذاء حين رحل للبحث عن الذهب. وفي أفريقيا عاشر الأقزام، فتش عن خلايا النحل وبيوض السحالي، وهام على وجهه مع الفيلة، وركب على ظهور التماسيح في المياه الضحلة. وكثير من المرات امتطى صاروخا في فيلم علمي سافر معه الى المجرات البعيدة، كي يكتشف كوكبا يشبه الأرض.

هو العاشق لاسرار النساء وحكاياتهن. سامية المتمردة أخبرته انها فاجأت زوجها ذات يوم في السرير مع واحدة من صديقاتها. رجعت بغتة الى البيت فوجدتهما متلاحمين مثل افعيين. قالت له اما ان تطلّقني واما ان اعيش حياتي حرة مثلك. رضي زوجها بالخيار الثاني خوفا من الفضيحة، او لأنه يحبها. هكذا التحقت بالشلة. اصبحت حرة، هل تلومها؟ لا اجاب زكي. كتبت قصيدة عن الشلة أخبره برهان في مشرب حانة بغداد. وكانت البناية المقابلة تذكّره بذلك الضوء عينه الذي رآه ينسكب على وجه فاطمة وهي تحتضر. اسمع اذا قال لزكي: يحبّون السمك المتبل، مطفأ برحيق الكرمة الأبيض، في باب توما. يترنحون بين السبع بحرات والجسر الأبيض، باحثين عن فتيات احلامهم المخبآت وراء ارقام التلفون. يطلقون ضحكاتهم الطفولية كأنما يغازلون بها اشجار المرجة وضفاف بردى. ضحكاتهم تغازل النساء اجمع. شعرهم يبدأ من فضاء اللغة لينتهي الى واقع التجربة. انهم ينسجون بصماتهم الخاصة قليلا قليلا، ويدأب، وهم يتطلعون الى قصيدة يصنعها غبار الأرصفة ورائحة الغابات ومغامرات السفر. شرب كأسا كاملة وصمت متأملا في الوجوه.

أخبرته سامية ذات يوم، وقد زارته في بيته، انها تتمنى لو تكون عاهرة لتعرف كل شيء عن الرجال. عاهرة ولا جاهلة. جربت مع زوجها ان تتزيا بزي العاهرة. صبغت وجهها بالألوان الفاقعة، طلت شفتيها بالأحمر العميق، خططت حاجبيها بهلالين عجيبين، شلحت ملابسها وارتدت فانيلا تصل الى ما تحت ردفيها، وراحت تتثنى وتطلق كلمات بذيئة الى رجال تتخيلهم يراودونها. تفاصل بالسعر وتتغنج وتتدلع.

وزوجها كما قالت ينظر ويعجب وكاد يجن من الاثارة. ضاجعها مرتين وهي تمثل ذلك الدور امام المرآة. اخبر زكي ايضا انه يجرب كتابة نصوص ويوميات مثل هذه، عن مغامرات الشلّة غير انه لا يفلح الا قليلا. قال له خلصني من هذا الهم واستلم الرسالة. وذلك جزء بسيط من محاولاته. شعر مخلوط بسيرة. او قصة مستوحاة من سيرته. لا احد يعلم الفرق.

يجلس منفردا مع زكي، في حانة بغداد، وكان دأب على استضافته كلما حنّ الى تلك الأيام، ايام شارع شيكاغو. وجده مستمعا جيدا، وهذا أمر نادر، كما قال، خاصة والجميع يلهث وراء لقمة العيش ووراء المكاسب والوشايات. ورؤوف يمتلك كذلك موهبة الاصغاء ان أراد، وهذا أمر معروف عنه. الا انه يربك جليسه بتقمص أفكاره ومعرفة تصادق منها والكاذب عبر النظر بحدة الى البؤبؤ. والحانة كعهدها، في ربيع مثلما هي في الخريف او الصيف او الشتاء. الأشجار القليلة تكلكل على بابها العريض المؤلف من درفتين حديديتين، تنفتحان على صالة صغيرة يبلغ تعداد طاولاتها حوالي العشر فقط. الجالس في الخمارة يستطيع رؤية المارة في الشارع المتفرع عن شارع بغداد، وحيث الضياء يشعل الأوراق في الأشجار المقابلة ويحيل المشهد الى لوحة فنية جميلة. واجهات البيوت مثل عيون متلصصة على الحانة، شبابيكها ترمش بين وقت وآخر، كلما ازيحت ستارة او اغلقت درفة. المطبخ يجاور الطاولات، يعلقون في واجهته الزجاجية لحوم الخرفان وأكباد الفروج وتتصل المقشر وجرزات المخضر كالبقدونس والطرخون والفجل. وحين يرغب اي زبون بالمضي الى الحمام عليه ان يجتاز المطبخ ثم يتجه الى

زاوية ضيقة يقع فيها ذلك الحمام الصغير. حانة ملائمة للبوح والتأمل وعقد الصفقات. وعبر الشارع تنتصب تلك البناية التي من طابق واحد. رؤوف اخبر زكي انها مسكونة بشبح. يجلس زكي كالعادة بمواجهة الباب. يرى الداخلين الجدد، والمارين في الشارع الذين لا يتورعون عن التحديق جيدا. البعض يبتسم والبعض يتأفف متذمرا. وكان زكي يترصد ظهور الشبح من خلل مظلات الشبابيك المسدلة دائما، وقد علاها غبار سنين لا تحصى. اما رؤوف فكان يفضل الجلوس وظهره الى الباب كي لايراه احد. يسأله زكي قائلا:

- تفضل الجلوس عكس الباب، لماذا؟

- انا شخصية اجتماعية معروفة، تعرفني دمشق كلها. انا ابن وحيد الدين، شيخ الطائفة وأكبر تاجر صابون في زمانه.

- لكن الشرب في الحانات أمر مألوف في أيامنا هذه؟

- مع ذلك فأنا أسير بحسب الحكمة القائلة: اذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا.

يعب كأسه من الخمرة البيضاء، ويمج سيجارته، وهو قليلا ما يأكل المازة، وينعطف الى موضوعه المفضل. شارع شيكاغو. ودائما من النقطة ذاتها.

- هل تعرف اين يقع الشارع؟

- اجل، قرب مقهى الهافانا، مقابل جامع الطاووسية.

- وأنت ذاهب الى جسر فيكتوريا، وما ان تجتاز مقهى الهافانا، حتى يلاقيك شارع شيكاغو. تمضي الى اليمين فتجد البارات والمحلات التي تقدم الطعام، والكباريهات، وكل ماهو سار ومريح. احدثك عن

عشرين سنة خلت. كان عالما بكامله، فشمة شرطة شارع شيكاغو وسعافه واطباء الشارع، القضايا المرفوعة والمحامون الخاصون بالشارع. قضاة شارع شيكاغو يعرفون المحلات والأشخاص، كما ان الأطباء الشرعيين متخصصون في شارع شيكاغو، فهم يعرفون من نوع الجرح والآلة التي احدثته، فتلك ضربة قامة وهذا بونة وذاك موس كباس والخ. كلهم يتآمرون حول ما يجري في الشارع من تصفيات ومراكز قوى. ضربه وسأخرجك بسعر كذا. اقتله بسعر كذا. بهدله امام ماغي البارميد ونك كذا مبلغ من الليرات. او يتفقون مع المحامين حول تفاصيل الجرائم مسبقا. لكل جريمة ولها سعر معين. الاستئناف والنقض والدفاع كلها مرتبة بطريقة شارع شيكاغو، وهذا ما قاده لاحقا الى الزوال. كلما عرّج زكي على جامع الطاووسية، ومقهى الهافانا ينظر بامعان الى شارع شيكاغو، او ما كان يسمى بشارع شيكاغو. دخله اكثر من مرة. محلات تصوير، مكاتب استيراد وتصدير، مصلحو ساعات، محلات بيع ملابس فاخرة، وقد أزيلت المطاعم السابقة من الشارع. ينتهي ببنايات عتيقة ومهملة، وكثيرا ما ناله العجب من ان شارعا مقفرا كهذا كان موطنا لقصص والحكايات التي تدور عن الغواني والقبضايات والسكيرين والمشردين.

هل كان رؤوف يختلق شخصية أخرى لهذا الشارع، لم توجد على الاطلاق في المدينة؟ هل كان يخترع ذكرياته الخاصة لكي ينال دهشتهم؟ همّ زكي عدة مرات بسؤال اصحاب المحلات عن تاريخ الشارع وقصصه الا أنه احجم خجلا، تاركا السؤال ليوم آخر. اعتبر ان شارع شيكاغو ما هو الا رؤوف وحيد الدين ماشيا، وحين يموت يموت معه الشارع ايضا. لم

يوجد الا في رأسه. اطلق عليه بدلا من اسم شارع شيكاغو شارع رؤوف، وهو اسم كتمه حتى عن الشلة. كان زكي، مثله مثل ابراهيم السمكري وخليل وأكرم والآخرين، يسمع دائما صوت رؤوف الهادئ، المرتعش احيانا، ما ان يفارق الشارع. صوته الغامض، الذي يزن الكلمات بميزان الوحدانية كما عرفه في شخصه: تدخل اي بار هناك وتسمع ذلك القاموس الغريب. صبحجي. تصبحجي. ابحث عن الفرق بينهما. الأمر لايقتصر على زيادة حرف التاء في كلمة تصبحجي، بل يتعداه الى ماهو ابعد من ذلك. الى فصيل معروف في شارع شيكاغو هو المدمنون، المعروفون بسيمائهم، واكثر من يعرف التصبحجية في شارع شيكاغو هو ابو واكيم الصبحجي. فالصبحجي هو من تبدأ اعماله في الصباح، مثل ابي واكيم، نادل بار الوردة الزرقاء، في شارع شيكاغو. يبدأ عند الصباح ولا ينتهي الا عند العصر، اذ يسلم العمل الى زميله المسواتي وهو من يستمر عمله حتى منتصف الليل، ليل دمشق، آنذاك، المعبأ بالكحول والمؤامرات السياسية والاشاعات وقصص الغرام التي تجري بين علية القوم ومغنيات شارع شيكاغو. لكن أبا واكيم شذ عن القاعدة، فامتد عمله في الوردة الزرقاء منذ الصباح حتى ساعة الاغلاق. كان ابو واكيم معتادا على فتح خمارة الوردة الزرقاء في السادسة صباحا. يجد التصبحجية واقفين مرتجفين من البرد شتاء، او مصفري الجلود في الصيف، منتظرين حسناته المقيمة لأود حيواتهم الذابلة: جرعة كحول سريعة المفعول تذهب برجفات اصابعهم، وشبق اوردتهم لذلك السائل الطيار، الحريف الرائحة.

يرفع ابو واكيم الغلق ويهرع شاقا طريقه الى البار بين ركام معارك

الليلة السابقة: الكراسي المقلوبة، الطاولات المخلعة، القناني المكسرة شظايا في الزوايا وعلى الطاولات وتحت البار. رائحة المكان خليط من العرق والبيرة، من النبيذ والوسكي والبراندي المحلي، من النقانق والمكسرات وعفن الأوراق المروية بالسوائل المسكرة وقد تركها البعض ملوثة بالقيء. اما المطعم النقال فيمكن لك ان تشم مازاته من بعد عشرة متار. يختار جبنه من اردأ الانواع. زيتونه مضت عليه سنون. جسده لا يحممه الا مرة في الشهر. ثم يتدافع التصبحجية اثر ابي واكيم بهلع، ربما خوف ان ينساهم، او ينشغل بتنظيف المحل قبل ان يناولهم ترياق الحياة. وأبو واكيم يتذكر رعيته جيدا. يناول كل واحد منهم نصيبه ثم يجلس على طاولة سليمة ليدخن لفافة الصباح. الله يعدمني اساميكم، هكذا يفتتح ابو واكيم يومه، مخاطبا تلك المخلوقات التي في طريقها الى السماء بسبب امراض الكحول. وبما ان معظم الزبائن، يشربون السبيرتو الأزرق الذي يستخدم لاشعال بوابير الكاز، ويدعى تحببا كونياك فليت، جرت العادة ان يحذّر ابو واكيم زبائنه من عدم اشعال السجائر قرب الأفواه، خاصة اذا كانت مفتوحة. يقص عليهم اخبار حوادث عجيبة جرت في الماضي داخل خمارة الوردة الزرقاء.

ذات مرة قال رؤوف، حدث الأمر فعلا. واحد من الجالسين اشعل سيجارته في اللحظة التي تثاءب فيها جليسه فما كان من السبيرتو الذي ابتلعه في جوفه الا ان انفجر في بطنه فتناثرت احشاؤه كأنها ريش نعام. سمّوه شهيد السبيرتو، ولو عاش البديري الحلاق في هذا الزمن لسوّن تلك الواقعة في مذكراته، باعتبارها من نوادر المدينة. هل تعرف نبديري الحلاق؟ حلاق مسكين عاش في ايام الوالي اسعد باشا كان

متعلما، وتلك من النوادر. فالحلاقون اغلبهم أميون. طلع في رأسه ان يدوّن يوميات الحياة في مدينة دمشق. وهكذا لأكثر من عشر سنوات. كان يجلس كل ليلة ويشعل مصباح الزيت ثم يجلب أوراقه الخشنة وقلمه المصنوع من القصب، ويبدأ بكتابة الحوادث والقصص والاشاعات. ذلك الزمن الذي عاش فيه، ايام اسعد باشا العظم، لم يخترع السبيرتو على ما اظن. انه صناعة حديثة وردت مع الصابون والسيارات والمدافع والمعامل الحديثة. آخر، عطس صدفة فالتهب الهواء الخارج من أنفه بلهب ازرق لذلك سمي بالتنين. الا تعرف التنين؟ يسأل ابو واكيم اقرب جار له من الزبائن، ذاك الذي وجدناه ميتا السنة الماضية وراء الباب. ويسرد ابو واكيم قصة موت ثانية لزبون يدعى أبو زكي، في ليلة دمشقية باردة قبل خمس سنوات. دفنوه في عشته المنتصبة في سفح قاسيون. ولكل زبون في الوردة الزرقاء، درة شارع شيكاغو التي ظلت تتلألأ خمسين سنة، وتسمع نداء المئذنة المنسكب على روادها يوميا، طوال تلك العقود، اسم حركي يعرف به، ونادرا ما عرف احد الاسم الحقيقي لجليسه او صاحبه الذي ظل يراه مئات الأيام، ولا الشغل او العائلة او محل السكن.

تلك اعراف شيكاغو، اسرار وحكايات غامضة ووجوه تأتي وتذهب دون ان تترك بصماتها في المكان. حتى ابو واكيم لا يهتم بخلفيات مثل تلك. والأسماء الحركية كما يدعوها رؤوف هي: الوردة، شوط ياقمر، خود عليك، انت التاني، والتنين، والمطبخ المتحرك، وأبو الفهم، وهي القاب علقت بالزبائن وعرفوا بها. كل كنية وراءها قصص وحكايات وعادات ومقاطع كلامية، دأب هذا الزبون او ذاك على النطق بها. فما ان يسترسل احدهم في حديث شيق حتى تنتصب قامة فجأة وبلا انذار.

يصيح صاحبها شاهرا ذراعيه في وجه المتكلم: شوط ياقمر. وذاك اعلان عن اعجابه بالحديث، وطلب للمضي في الكلام سردا وحوارات وتنكيتا وتقليبا. واذا ما انضم شخص جديد الى طاولة روادها متآلفون، سرعان ما يقف شخص متخصص بتنظيم شؤون الطاولة، ليهدر في وجوه الجميع: خذ عليك. وتكون الوجوه حينها منكبة على بزوراتها وكؤوسها وسجائرها، محدقة بتلك النقوشات العتيقة على مفرش الطاولة او ناظرة في الفراغ المعتم فوق الرؤوس وقد تلبد بغيوم الدخان، او مستمعة الى بي الفهم وهو يقرأ في مخطوطة البديري حلاق دمشق ايام الوالي اسعد باشا. اما جملة: انت التاني، فلها قصة اخرى. كان الكهل المدوّر الوجه القادم من اصقاع العالم البعيد، ذو السحنة التترية، والأسنان المهدمة هو الذي يرددها دائما. رزق المدعو انت التاني ابنة في نهايات عمره سماها ياسمين، الابنة الأولى والأخيرة، وعلى مايبدو كانت تردد لازمة لاتمل منها في البيت، انت التاني. تسقي الزريعات وتقول انت التاني. تشطف الأرض وتقول انت التاني. تناول بائع الفول القروش وتصيح انت التاني. وحبه لابنته تلك جلب عبارتها الى الوردة الزرقاء، ودوزنها ضمن نشاطات الصحاب فراح يردد في كل موقف: اشرب انت التاني. اقعد انت التاني. ادفع انت التاني. ويقضي ساعات في سرد حكاياتها مع بنات الجيران والعرسان الذين تقدموا لخطبتها وبراعتها في اعداد الكبة النيّة واليالنجي ومربى الورد. ومن اقعد انت التاني الى مدير الاستخبارات الفرنسية كويتو. انه الآخر كهل صغير الجرم، حليق الوجه، نظراته متراقصة لاتستقر على وجه. كل صباح، ما ان يستلم تمويله من الجاندي المحلي وتستقر اعصابه حتى يبدأ برواية اخبار البلد.

كان كويتو مستودعا للأخبار. له عيون في ساحة المرجة، وسوق ساروجة والقابون والزبلطاني. يجلس بأحدى مقاهي عين الكرش بين حين وآخر، يراقب الطيور. اقفاص الخشب وهي تمتلئ بالسماني وطيور الحب الملونة والببغاوات التي تحكي له عن رحلات قديمة قطعتها ذات يوم من البرازيل حتى صيدنايا. وهناك كان يلمح ايضا السلاحف المعبأة بأقفاص، والديك الرومي وهو يلتقط الهواء بمنقاره واليمام المطوق وقد جلب من غابات الزبداني. ويمضي الى احياء بعيدة عن شيكاغو مثل حي الميدان او القصاع، لا لشيء سوى تسقّط الأخبار والشائعات عن كل حي وشارع وأسرة. عن الساسة والممثلين والأثرياء وتجار سوق الحميدية المشهورين، ومضاربي القطن والزيتون وقصص باعة الطيور ومربيها. ويعتبر غليونه الفرنسي جزءا من هندامه وشخصيته، فهو ينظفه ويملؤه ويفرغه، يشعله او يطفئه باصبعه اثناء الكلام، بل ويشير به ويومئ محركا احداث حكاياته او أخباره، حتى صار له معجبون ومقلدون عرفوا باتباع كويتو لا لشيء الا لأنهم يدخنون البايب.

يغمر رؤوف جليسه، زكي أو غيره، وعلى امتداد ساعات، بحكايات ابو الفهم والبديري الحلاق الذي عاش ايام اسعد باشا العظم في القرن الثامن عشر، وطرائف ماغي وقصة عشقها للبيك نسيم. يلمح الجليس الضوء يختفى من الأفق، فيتحول النور نورا مصطنعا يسقط على الوجوه والأشجار والاسفلت من مصابيح الكهرباء. البناية التي امام الحانة تزداد رعبا. بناية من طابق واحد مهجورة نوافذها موحشة، يغطي جدرانها الكباد والسرو. يتخيل زكي شخصا ما يخرج من الباب او يتخيل قصة ذلك الشبح الذي قال رؤوف انه قطن البناية منذ عشرات

السنين. قتله اخوه لأنه ارتاب في علاقته مع زوجته، وأخفاه في حديقة المنزل. لكنه راح يظهر كل ليلة ويلوث احلام القاطنين بأنينه وحشرجاته، الى ان اضطر اخوه الى ترك البيت. حاول ان يؤجره لكن لم يصمد فيه احد. لقد سكن الشبح البيت ولن يكف عن الظهور حتى ينتقم من أخيه. تلك قصة رؤوف الجالس امامه، الذي سبح في الماضي مثل بحّار عريق. يمرّن زكي نفسه بتقمص شجرة الكباد التي تظلل البناية فلا يفلح. امامه طريق طويل لبلوغ الهدف. يعود رؤوف الى شارع شيكاغو، المتراقص في جفون زكي. شرب كثيرا من الأقداح وأحرق عشرات السجائر، فهو لايطفئ السيجارة من فمه.

يلاحظ المرء بسهولة الاصفرار الفاقع في اصابعه، والزرقة الواضحة على شفتيه، فضلا عن الصفار المقيم على اسنانه. كان الصفار يوحي بمدخن عتيد جرّب انواعا لا تحصى من التبوغ. يصبح لسانه في هذه الفترة ثقيلا، فبدلا من ماغي الراقصة، يصبح اسمها باغي، وبدلا من القصر العدلي يصبح الاسم الصرالدلي، وبدلا من مساكن برزة يصبح الاسم بساكن فرزة. وتلك دلالات لا يعرفها زكي فقط، بل جميع الشلة. يكون رؤوف سكر وحلّق في سماوات روحه. سينتقل الى حيز العزلة. تلك الصدفة التي مرّن روحه على الاختباء فيها. لا يبقى الا نقله بتاكسي الى مساكن برزة. هناك حيث يبدأ تقمصاته وتماهياته مع الأشياء والحيوانات والحشرات الكثيرة التي تمرح وتسرح في بيته الصغير المؤلف من غرفة كبيرة ومطبخ وحمام ومدخل. ذلك البيت الذي اجتمعت فيه الشلّة مرة واحدة.

* * *

من بين البارميدات في شارع شيكاغو، كانت ماغي ملكة الشارع. شابة نيّرة الوجه، فسيحة الوجنتين، عبلة الجسد، اذا كانت في مجلس تصبح عيناها مركز جذب العيون كلها، وتلك اعجوبة الهية في مباحث الجمال للجنس البشري. رموش سود، اجفان مثل اجنحة الفراش، تعابير وجه انثوية معتقة مثل نبيذ صيدنايا. ساعات، وساعات، انتحي جانبا على احدى الطاولات اتأمل جمالها وحركتها ونظرات عينيها المتراقصة كأنها عصافير. مراهق يقع من بعيد في حب امرأة ناضجة، لكنه لا يمتلك الجرأة على البوح. عشق ماغي في تلك الفترة كان يقود الى الموت او الفضيحة، كما جرى لنسيم بيك.

مثلما لشارع شيكاغو ملكة فله ملك، الا ان هذا يتغير كل ثلاثة اشهر والسبب انه يقتل. نعم الملك لايدوم الا ثلاثة اشهر بينما استمرت ماغي ملكة للشارع حتى ساعة اغلاقه ولذلك قصة اخرى. يقتل او ينتحر، وهو قبضاي الزكرتية، فتوة الفتوات، من ثم يأتي واحد اقوى، فيكون بين أمرين اما ان يهرب منه او يغتاله. ماغي ملكة البارميدات، تتمتع بكل ما يحبه الرجل، ويطلبه: جمال، غنج، كمال، دلع، ذكاء. كان كبار القوم، يخطبون ودها. اذ كانت تخرج بين الحين والآخر الى شارع شيكاغو تقارن بين خدمة خمارتها وما يحصل عليه الزبائن في أماكن ثانية. كان في دواخلها انسان بوهيمي. عندها اجواء أرقى بكثير من شارع شيكاغو، الا انها تحب شارع شيكاغو وصارت ترتبط به روحيا. الأثرياء والوجهاء وذوو القدرات وأصحاب الكبريهات الراقية، خطبوا ودها، وطلبوا منها العمل لديهم. تترك هذا المكان الحقير المسمى شارع شيكاغو، الشارع الملعون، والوضيع الذي وقف امامهم حاجزا فلا

يرون ماغي ملكة البارميدات. كانت من منطقة القصاع، باب توما. في سهرات معينة تمضي ماغي بصفة سيدة، برفقة بعض الوجهاء او مدعوة بمفردها لدى واحد من الباشوات او التجار او السياسيين. تخرج من شارع، وتمضي الى هناك، الى بحر المخمل، الطبقات الناعمة، الأرستقراط الدمشقي، وسهرات الخلان، في بيوت خاصة تأتي اليها راقصات الأجنبيات والمومسات الراقيات، والفنانون المعروفون. عزف عود وشراب ورقص، وهي في داخلها تشمئز من ذلك المخمل. تحس بزيفه ومؤامراته وعواطفه الكاذبة ومجاملاته الفارغة.

ونسيم بيك كان واحدا من المجتمع الأرستقراطي، الذي تكرهه ماغي. موظف متقاعد برتبة عالية، تقترب من الوزير، في ذلك الوقت الذي كانت الوظيفة فيه وجاهة. كان نسيم بيك يمتلك قصرا في الزبداني، بواجهات عديدة وشرفات مليئة بالزهور والنباتات، ويحيط بالقصر جنة من الأشجار المثمرة، والجبال التي توحي بالجمال والكمال. وكانت ماغي تكره ذلك الجو المرتبط بالاستعمار الفرنسي، فالبسطاء اقرب الى روحها. تحس بروحها طليقة وسط المطعم النقال وسعدو القبضاي والتنين وابو زكي. وكثيرا ما دخلت مخزن الرهونات لتتأمل في الكنوز القديمة. تداعب الخناجر والمخمل. تتلمس خيوط الحرير في البروكار. انها من طينة زنوبيا ملكة تدمر. القوام ذاته، الخد الأسيل عينه، الكبرياء الناث للعظمة وهو يسيل من شعرها الخرنوبي. تتيم بماغي ذلك الأرستقراطي بجنون. نسيم بيك الأرمل، الذي قارب السبعين سنة. كان متيما بها جادا، دون النظر الى فارق العمر والمزاج. وكانت ماغي في الثلاثين، تلعب الرجال على اصابعها، ترقصهم، تفتعل بينهم المعارك، تقودهم الى

المذبحة. الجمال يقود الى الموت، والدم يسفح على ساقي ماغي وجيدها وعينيها النجلاوين اللتين رمتا السيد نسيم بسهام لا تخيب.

صار لا ينام الليل. يفتعل المناسبات والسهرات في قصره في الزبداني لا لشيء الا ليحتفظ بماغي أطول فترة ممكنة في بيته. كانت ماغي وراء مقتل كثير من ملوك شارع شيكاغو. تعلّق بعضهم ببعض، مرقّصة الرجال تلك. انها حلم اي ملك في شارع شيكاغو كي تكون محظيته الأزلية. فحين يبرز واحد كي يكون ملك شيكاغو تكون ماغي متضايقة من الملك السابق، لذلك دائما ما تقوده الى الموت. يحضر المرشح الجديد للملوكية، في عيني ماغي، فتنتحي به جانبا وتخبره ان الملك قال لها كذا وكذا كلمات نابية، فينتفض المرشح غاضبا. يتوعد ويرعد ويزبد مثل فارس عتيد. بالتالي واحد من الاثنين سوف يقتل. الملوك عادة ما يكونون بلطجية المكان. البلطجية لا يعشقون، فقلوبهم ثخينة أثخن من جلد تمساح. الموت هو الذي دفعني الى عشقها بصمت.

رغم انني كنت اضاجع كل يوم تقريبا، في فنادق المرجة او في شقق الأصدقاء العزابية، لكن ما أن يحل المساء حتى تجذبني حانة الوردة الزرقاء مثل بحر. كيف يمر النهار دون رؤية ماغي؟ ما طعمه اذن؟ نسيم بيك عشقها هو ايضا عشقا غير طبيعي. العشق كما تعلمت لاحقا ينبغي ان يكون بين شخصين متكافئين والا تحول الى لعنة ومرض وهوس. وذات ليلة بلغت استهانتها حدا جعلها تقول له: انك تعتقد اني من طبقة مسحوقة ومهانة لذلك لا تزورني في عملي. فيرد نسيم بيك متلعثما: المكان لا يليق بي يا ماغي، فشارع شيكاغو عبارة عن شلة من اللصوص والسكيرين والقتلة والقوادين والمدمنين، وأنا لا أستطيع ان

ضع نفسي بينهم. لا أريد أن يقال في دمشق اننا رأينا نسيم بيك سكراناً في حانة الوردة الزرقاء او القنديل الفضي او رائحة الياسمين. رجوك يا ماغي لا تبهدليني!!! طبعا شاعت القصة بتفاصيلها الدقيقة بعد الفضيحة.

ماغي ظلت تلعب بأعصابه: توده وتصده. تغنج له ثم تهجره. تعده ولا تأتي، او تفي لكن بعد طول غياب. وهو يركض وراءها دائما. يريد امتصاصها مثل عقب سيجارة. امتصاص ماضيها وطفولتها ومراهقتها وأقربائها وروائحها ولحمها وصوتها وشعرها وأظافرها. امتصاص تلك الملكة التي اقبلت الى الحياة في لحظة مدبرة له، وليس أمامه الا التمسك بذيالها تمسك اليائس المفارق للذات العالم. كان نسيم بيك عادة ما يجلب لسهراته مطربا، يعزف على العود، يغني اغنية محمد عبد الوهاب الشائعة: الهوان وياك معزة. لا يمكن لأغنية ان تنفس عن أحزانه، وتنشر هواجسه في الفضاء البعيد، وتعبر بحبه الى قلب العشيقة سوى تلك الأغنية. اعتبرها أغنية حياته التي سيظل يرددها طوال معرفته بماغي، بل طوال ما هو عائش في هذا العذاب المتأخر. كان يردد على مسامعها دائما شكوى اضطهادها. انك تتمادين معي، يقول لها، لكن لابأس ولا ضير فانت الملكة والملكة يحق لها ما لا يحق لغيرها. انك تقلينني بطنجرة مليئة بزيت الزيتون. انت شوكة تنخسني في قلبي كلما ذهبت الى الفراش. انت وردة محاطة بالموت. وهكذا.

وذات يوم، حين كانت ترقص في محفل خاص اقامه بعد شوق عارم لها، جمع خاصته وجهز ذلك المغني المجيد الذي افتتح الحفل بأغنية الهوان وياك معزة. بلغ به السكر ان نهض من مجلسه وتناول ايشاربه

الحريري من الخزانة وربط خصر ماغي التي راحت تهتز في الوسط بين الكراسي المنجدة بالبروكار والستائر الموشاة بالذهب والسقوف المنقوشة بالعجمي والأبواب المصنوعة من الجوز.

رقصت بين كؤوس الكريستال المترعة بالويسكي والشامبانيا، وقناني الأشربة المتنوعة المجلوبة من الدنمارك والسويد والبرازيل والفلبين واليابان وايطاليا وسكوتلاندة. كانت تغوص في حمى الاحتقار لكل تلك الأناقات والوجوه البليدة المعبأة بالشهوة والنقود والدنا ءات، وسط الأكاسيا والمطاط وعين الهر، وفي أتون الأغاني الفولكلورية التي غنتها حارة باب توما والبحصة وعين الكرش والشيخ محي الدين والصالحية والميدان. دف وعود ودبكة قدم. وفي هذا الجو المشحون بالألق والجنس والنظرات الأنثوية، يقسم لها نسيم بيك انه سيشرب العرق، هذا المشروب الشعبي البائس، الوقح، سيشربه من حذائها في شارع شيكاغو وعلى رؤوس الأشهاد. امام الجميع سيشرب العرق من حذائها. نام على هذا الوعد محاطا بنسيم الزبداني وأزيز البعوض وندا ءات طائر البوم. وهلّ الفجر ثم جاء الصباح. راحت الفكرة وجاءت العبرة. هذا ثمن ضخم لا يستطيع دفعه. ستعم الفضيحة بيوت الشام كلها، وسيسقط شرفه في الوحل. اية معضلة دسّته فيها تلك العاهرة!

وفي اليوم التالي قالت له ماغي: كنت اعرف انك ما وعدتني الا لأنك سكران. لن تفعلها لأنك من طبقة اخرى. كيف تجلس في حانة بائسة وسط ابو الفهم وخود عليك والتنين، وكل تلك الشلة المبتلاة بوباء الادمان؟ انت نسيم بيك صاحب الأطيان والثروة والخمور والمسابح؟ نسيم بيك الذي يشرب الشامبانيا ويسمع انغام البيانو المركونة في ليوانه. هذا

هو عالمي فمن يرغب بعالمي عليه ان يدخله بشجاعة. المرأة لا تركض وراء رجل، العكس هو الصحيح. رجعت ماغي الى دلالها مرة ثانية، وصارت القضية اشبه بصراع بينهما. حاول استرضاءها منفذا كل رغباتها ونزواتها الا تلك. فاجأها في احدى الظهيرات الناعسة، ووادي ريدان ينوس بالظلال والشمس والسراب، حين دعاها الى الحمام. ملأه بالشامبانيا الفاخرة، التي كانت تصله من بلاد الفرنسيس. ملأ البانيو بالشامبانيا الخالصة ذات الرائحة الفاغمة المسكرة، وقد سالت من السيراميك نحو المرايا وقناني العطور وخشب الجوز والاطارات المذهبة والمناشف القطيفة. استنفد كل القناني المخزونة في قبوه، لرغبة واحدة في روحه، هي ان يحممها بيديه. يلامس تلك البشرة البضة، يجعل من الساغها نبع شباب لجلده المغضن السائر نحو الموت.

اعجبتها الفكرة ودخلت بين يديه العجفاوين مع قليل من القرف، لكنها لم ترض. لن تسلمه جسدها حتى يشرب العرق من فردة حذائها، وفي حانة الوردة الزرقاء بالذات. لابد له، هذا الأرستقراطي النتن ان يشم رائحة المطعم النقال ويسمع حكايات البديري الحلاق ويتقيأ على تتراشف احلام حياته المحبطة. حاله حال هذه الملايين الجارية في طرقات مدينة مثل نمل. عليه قطع تلك الهوة بينهما بشجاعة. لتذهب المظاهر والأتكيتات والسمعة الى الجحيم. هذا فقط ما يرضيها.

ستذله مثلما أذلها الرجال الآخرون. ستجعل منه خلاصة للرجال وتنتقم منه. لم يعد الذهب يغريها ولا الفساتين البراقة ولا الأحذية النسوانية المثيرة. لا يغريها الكحل الفخم ولا علب المكياج القادمة من مصانع اوربا. لهذا، وفي يوم آخر، ولكي تمعن في الدلال أمرته، هو

نسيم بيك، ان يوزع قناني الويسكي الغالي الثمن، وآخر منتجات اسكوتلاندة، على عماله وخدمه. استغرب الطلب وعدّه ولدنة بنات، لكنه نفذه بطيب خاطر مع ابتسامة ساخرة على شفتيه. كل ذلك لم يجلب لها الراحة. لن يرضيها سوى زيارته لها في الوردة الزرقاء بشارع شيكاغو لتنفيذ وعده. ستذله امام الجميع. ستجعله يشم رائحة مخزن الرهونات وعطن الجبنة في سلة المطعم النقال، ورائحة البراندي المحلي، والتبغ الرخيص، وأنفاس التصبحجية وهم يفطرون على الكحول وينامون على الكحول. ستجعله يرى الطيور الجارحات ورؤوس الذئاب والأفاعي المرسومة على سواعد القبضايات، ويجلس على المقاعد الطويلة الجاسئة المركونة على بار ابو واكيم. وسيسمع قصص البحارة القادمين من الساحل، وحكايات اللوطيين في سوق التبن والحريقة وحارة النوفرة.

بدم بارد ستحطم سمعته الكاذبة، ذلك العجوز المخصي، فاقد الذكورة، مصاص دماء الشابات الفقيرات.

وذات ليلة تفاجأت ماغي بدخوله الى حانة الوردة الزرقاء، جالبا معه ذلك المغني الذي لا يحبذ سوى: الهوان وياك معزّة، لمحمد عبد الوهاب. رجل اصلع يتصبب عرقا كلما بدأ عزف العود. ومفتون مثل عرّابه بأغاني محمد عبد الوهاب. يتفنن بها، يتمطقها، يتنفسها وكأنها اكسير حياته الذي يمده بالبقاء. دخلا تلك الليلة وسط ذهول الجميع. ابو واكيم وقف على البار مثل اصبع ثلجي، التنين لم يتنفس الا ليبقى حيا. البلطجية، وخاصة الملك، خاف ان نهايته قد دنت. لكن من بين الجميع شعرت ماغي حقا بزهو الانتصار. انتصرت على ذلك المتعجرف العجوز الذي يتسلى بها، كونه يمتلك النقود والسلطة والاسم اللامع.

وكان ابو الفهم كالعادة يقرأ لشلته من مخطوطة الحلاق: وفي تلك الأيام ازداد الفساد وظلمت العباد وكثرت بنات الهوى في الأسواق، في الليل والنهار. ومما اتفق في حكم اسعد باشا في هذه الأيام ان واحدة من بنات الهوى عشقت غلاما من الأتراك. فمرض، فنذرت على نفسها ان عوفي من مرضه لتقرأن له مولدا عند الشيخ رسلان. وبعد ايام عوفي من مرضه، فجمعت شلكات البلد، وهن المومسات، ومشين في اسواق الشام، وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر، وهن يغنين ويصفقن بالكفوف ويدققن بالدفوف، والناس وقوف صفوفاً تتفرج عليهن، وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور، وما ثم ناكر لهذا المنكر، والصالحون يرفعون اصواتهم ويقولون: الله اكبر. قالت ماغي لنفسها ليس بعيدا عن شلة العسكارى: سيد نسيم بيك، هه، خراء، مومياء متحركة، ابن مئة كلب. تظن نفسك خالدا يا ابن ستين كلب؟ بلغت بك الأنانية واللؤم انك لن توفر اي امرأة في العالم حتى لو كانت بعمر بناتك؟ ابن مئة كلب سأجعلك مسخرة شارع شيكاغو دون منازع. شعرت بالفخر مع نفسها ايضا، كونها جذبت الى عشها اشهر رجل في دمشق. فهي التي على فمها عناقيد، وتحت اعطافها مناديل، وتلف عينيها غيمة من شبق وعشق وأحلام. ترقص اعضاؤها دون ان تتحكم بها سوى الموسيقى المنطلقة من رق وطبلة وعود ودف ومزمار. يرتجف دمها مع الرقص مثل اي مجنونة تركها الليل وراءه في شارع المجانين ذاك، الشارع المدعو شارع شيكاغو. هي من ستذل نسيم بيك.

عمّت المكان دهشة هائلة: البوابون، السائقون، الآذنون، الموظفون الصغار، رواد الوردة الزرقاء، صعقوا من دخول نسيم بيك، الموظف

الكبير، المتنفذ، صاحب الأطيان والمحلات، الذي يفك المحكوم من حبل المشنقة كما يقال. قالت للشلة لنحتفل بنسيم بيك، على طريقتنا. بدأ ت ماغي ترقص برهدنة امام البار، وهذا من النوادر، وكان كامل جسدها معجوناً بروحها. راقصة منذ الولادة، جسدها مصنوع لابهار الآخرين وهي تعرف ذلك وتستغله تماما. كانت ترقّص كل عضو على حدة. فالخصر يهتز لوحده ويتجسد كيانا قائما بذاته، فيما لو حصرت العين مجالها فيه. اليد كل واحدة ترقّص اصابعها، الخنصر دائرة، والبنصر يشير الى الجالس في زاوية، والابهام يرسم دوائر على ثديبها الممتلئين، اللذين ترجرجهما بغنج. القدمان تراقصان جنا غير مرئي، ذات اليمين وذات الشمال، خفتهما تتخاصمان مع الأرض، وتستقبلان السما ء برحابة. تذهب وتأتي، تتماوج شرقا وغربا، وتلك الابتسامة الغامضة تسوح على خديها الموردين. لمن توجهها؟ لا احد يعلم. ضحاياها لا يبوحون بسرها، وهي ملكة شارع شيكاغو التي لا تسأل عن حالها. الردفان كأنهما موجتان في غسق ناعم الضوء، يعبثان بالموسيقى ويقرصان أعين المحيطين، والردفان كون شاسع طالما امتص الرجال وقذفهم الى الهلاك.

انها طنجرة تقلي السمك كل يوم، السمك يمضي والطنجرة باقية. وتلك مجرات ماغي التي لم تكتشف بعد، من قبل نسيم بيك.

تقمصت ردف ماغي اكثر من مرة.

كيف؟

مسألة بسيطة، رغم انني لا احاول دخول تلك الحلبة الا في الحالات النادرة. عندما أتوتر وأحس بحاجة الى التفريغ. اتخيل منفرج الاليتين،

تلك النقطة الصلبة التي يتفرع منها ذلك السهل الممهد. ثمة شعر اسود، ناعم، وثمة ملاسة غير طبيعية. انزل الى الأسفل الى الحلقة الخائفة، والمتخفية خجلا، وقد جادت عليها ماغي من جهدها وروّضتها وعطرتها. وأصعد الى منطقة النار، تلك الفاصلة بين عالمين. عالم ماغي شعرة مزروعة في ذلك المكان الذي طالما وجدت نفسي فيه. أمرّ بالوالجين، وأرفع الداخلين، وتمطرني الأعضاء برشاش مائها، وانا منزلة بين المنزلتين. لست شاهدا ولا والغا بذلك الاناء الأبيض المائل الى السمرة، يطحن من يدخل ومن يخرج، فاذا الكل منهكون. طنجرة تقلي السمك كل يوم. السمك يمضي والطنجرة باقية.

تلك مجرات ماغي، ملكة شارع شيكاغو غير المتوجة التي قتل من اجلها اكثر من عشر قبضايات. استحضرت جسدها مرارا حتى بعد زواجي من فاطمة. هناك نساء يعلقن في الرأس حتى الممات. اظن ان نسيم بيك كان ملتاث العقل مثلي. اللوثة لا تعير ادنى اهتمام للعمر. جلس وسيم بيك على كرسي البار، وتهدلت فردتا مؤخرته على جانبي الكرسي. بان الكرسي وكأنه داخل في جسد البيك. فما كان من التنين الا ان نط من مكانه حين رأى المشهد وصاح بأعلى صوته: انه اضخم مسلوت رأيناه في حياتنا. والمسلوت في عرف شارع شيكاغو هو عضو الرجل. ضج عليه الجميع قائلين اصمت انه معلمنا، لا تتكلم معه كلاما لا يليق. ثم بدأ المغني بلوعة: الهوان وياك معزة، كما اعتاد دائما. كان في لحظات تجلّيه يغير الكلمات لتصبح: الحب وياك مذلة. وكانت الساعة تجاوزت العاشرة مساء بقليل. لقد تحققت احلام ماغي باذلال هذا الصعلوك الكهل، فاقد الذكورة. ونسيم بيك لايملك كبرياء يريد نسيانه،

انما تاريخه وتاريخ عائلته لا يسمحان ببهدلة مثل تلك.

وفي اللحظة المناسبة، وحين سكر وانتشى قالت له ماغي هل انت جاهز؟ قال لها نعم انا جاهز يا قمري. يا دجاجتي. يا قطتي. طلب منها المجيء، ونزل عن كرسي البار وأجلسها عليه. وضعت ساقا على ساق، وأمسكت كأس الشامبانيا بيد والسيكارة بيد، ثم نظرت الى الخمارة والموجودين والشارع المتلألئ بالأضواء. وبعزّة الملكة، وكبرياء المرأة التي أهينت مرارا، أشارت الى حذائها الصغير وقالت:

- ابدأ يا نسيم بيك! تدعوك ماغي الى جنة اقدامها. تلك متعة لا يحصل عليها اي رجل.

نزع حذاءها بأبهة، وصب فيه العرق. نزل الى الأرض وسجد، متأهبا لارتشاف الوجبة النسائية التي ستنقله الى ملكوت المرأة المتأهبة للانقضاض عليه وكأنها متاهة لا قرار لها. التصبحجية ينظرون، لا يصدقون ما يرون. معلمهم الكبير يسجد على حذاء امرأة! يا للضعة والغرابة والمهانة. لكنهم، آذنون وموظفون صغار وخدم نظافة، ما ان رأوا نسيم بيك ينحني لشرب الكأس الحذائي حتى نزلوا عن طاولاتهم وخرّوا ساجدين الى الأرض. قدّموا صلاتهم الى اجمل امرأة في دمشق. الملكة زنوبيا وقد حلّت بجسد ساقية الحان، ماغي البارميد. انها عوالم شيكاغو الغريبة. كانت ماغي في العمق، تنتقم من تلك الطبقة الحقيرة التي تربعت على سلطة هذا البلد عشرات السنين. البوهيمية القاتلة في شخصها نار، تحتقر كل ما هو مادي.

كانت تعرف مجتمعها جيدا، فهي قطعة نفيسة وأنيقة، اختارت تلك الأجواء كون دخيلتها شاعرية وكانت شاعرة زجل. امرأة تملك

صعلكة وعبثية في الحياة. انها الملكة الدائمة لهذا الشارع، وهي في تأملاتها ترجع دائما الى زنوبيا، ملكة تدمر. مثالها الأزلي. قرأت حياتها وبطولاتها من خلال الكتب، وسمعت عنها من أفواه مريديها وأحبتها وعشاقها. وذات يوم دخلت المتحف الوطني وشاهدت تمثالها ولباسها وصيغتها، التي راحت تقلدها بدقة وتفصيل. الأطواق والسلاسل وتسريحة الشعر والتاج المرصع بالدر والجواهر، والجيد المتلع بكبرياء، والعينين الناظرتين باستصغار لكل مخلوق على هذه الأرض. ظلت كما سمعت اخبارها لاحقا، ولسنين طويلة، وقبل ان تنام، في ازقة باب توما، تقدم ولاءها لتمثال زنوبيا. أهداها اياه واحد من عشاقها من العاملين في الآثار. وسر تعلقها بزنوبيا لم اكتشفه ابدا، وكان يثير فضولي دائما. هل هو جمال تلك المرأة، كبرياؤها، شهرتها، السلطة التي تمتعت بها؟ سر عجزت عن اكتشافه، حتى سنة اغلاق الشارع. لكن تمثال زنوبيا ظل في بالي. قلت لنفسي لابد ان اشاهده وأقع على سره. وحصل هذا بعد سنين. كنت مع فاطمة، لكنني اتنفس أحداث زمان آخر، زمان ماغي ملكة البارميدات، واهتمامها غير المألوف بتمثال زنوبيا الملكة. كان عقلي هناك، مع نسيم بيك وابو واكيم ودفتر العملات ومحل الرهونات. كثيرا ما فكرت باستجلاء سر التمثال، وقررت عدة مرات المضي الى المتحف، غير انني اتراجع في اللحظة الأخيرة. حسمت أمري ذلك اليوم. كانت فاطمة معي. وجدنا الهدوء يخيم على ساحات المتحف وأشجاره، الحرارة تثوي على اغصان اليوكالبتوس المعمرة والحور وأزهار الحدائق المعتنى بها. وكانت ثلاث بطات تسبح في البحرة الصغيرة المقابلة للمدخل. لقد مضى عصر شارع شيكاغو منذ سنين، ولم يعد

يصـخب الا في رأسي. حين حـاذيتـه، ادرت وجـهي الى جـهـة جـامع الطاووسية. ولم تلاحظ فاطمة اي أمر مريب. سمعتني مرارا اردد في احلامي كلمة ماغي. لكنها اعتقدت انني اهذي. أغلق شارع شيكاغو وأغلقت معه أبواب شبابي التي كانت تطل على حياة دمشق العريضة. لايمكن ان تدوم الأشياء، فلكل سنة احداثها.

* * *

سنوات وهو مسكون بتفاصيل شارع شيكاغو. يبزغ اسم ابو الفهم ثم يجر وراءه نسيم بيك وماغي وتمثال زنوبيا وعشقه القديم الذي كان يغفو في الذاكرة. ظل راكنا هناك حتى بعد زواجه بفاطمة. لقد أحبها بعمق، وكانت الملاذ الذي انقذه من رعونة الشباب. كوّنت له بيتا، وأشاعت بين جدران البيت تلك الدعة الأنثوية التي تنسي الرجل ما يجري في الخارج. معها اكتفى من كل لذة او نزق. يمم وجهه شطر الكتب والتأليف، والمطالعة التي تمتد ساعات. يطول ليله احيانا حتى طلوع الفجر، يعيد قراءة الأصفهاني والبديري الحلاق وألف ليلة وليلة ولسان العرب. يدوّن الملاحظات ويكتب اليوميات. ذات مرة كان يسير مع فاطمة وعنّ له رؤية زنوبيا بكل بهائها. زنوبيا التي تذكّره بماغي، وماغي التي تذكّره بزنوبيا. عليه ان يستجلي السر ويكشف طلّسم الجمال.

الم يتمن، ذات سنة، لو كان محل نسيم بيك ليرتشف العرق من حذاء ماغي؟ لم الكذب مع النفس؟

– ما سر هذا الاهتمام بآثار تدمر اليوم؟

سألته فاطمة وهما يلجان باب المتحف، في ظهيرة حامية. خلّفا بردى وراءهما ناشفا، عطن اشناته وطينه يسري في الهواء. واستقبلتهما حمامات تهدل بين غصون الكينا. فاطمة تسير جنبه خفيفة، تتطلع في جنبات المتحف وأعمدته بنظراتها العصفورية التي لا تستقر على شيء. انها زنوبياه التي لا يمكنه مفارقتها مهما ادخلته الحياة اليومية في قصصها وحكاياتها ونسائها. تركت روحها على كل قطعة في البيت. اينما تحرك يجدها ماثلة امامه. على الستائر، فوق أواني المطبخ، بين صفحات كتبه، حتى رائحتها كان يشمها في الأغطية والشراشف ومناشف الحمام. لهذا السبب ربما ترك البيت بعد مماتها. هي الالف الذي تغلغل في الجسد وذاب مع الأنفاس. كل صباح، وأول ما تفتح عينيها تروح تحدثه عن أحلامها التي رأتها في المنام، تختلط فيها وجوه الأبناء مع وجوه المعارف، ويتداخل الزمن فيها منذ طفولتها حتى اللحظة التي اصبح لديهما بنتان متزوجتان وابن يدرس في اميركا. ولا يملك الا ان يخترع اسبابا لاحلامها وتفسيرات لكل نبرة او حوار. وهذا ما دعاه لقراءة كتب في تفاسير الأحلام، او تلك المختصة بالباراسايكولوجيا والتخاطر والحدوس، ليلبي لها رغباتها باعتباره مفسر أحلامها الوحيد. تلك أزمان ماضية تحولت الى ذكريات. هل يخبرها انه اعدّ بحثا عن هذه الحضارة المندثرة؟ هل يقول انها لعنة ماغي ملكة البارميدات؟ تلك اللعنة التي لم تفارق خياله منذ ان رآها اول مرة في حانة الوردة الزرقاء؟ كم سنة مرت على تلك الأيام؟ أيام شبابه التائه، ورعونة الغنى الذي وجد نفسه فجأة فيه. ماغي، ملكة الشارع غير المتوجة، والأسطورة التي مشت حية في شوارع دمشق.

سيستجلي أمر التمثال، ويقع على سر تعلقها به.

خلّفا ثلاث بطات تسبح في البحرة أمام الباب.

القاعة التي ولجاها كانت تضم كل ما عثر عليه في تدمر من آثار. هي المرة الأولى التي يدخل فيها قاعة آثار تدمر. هناك في الجو مهابة القدم، تنشها ربما تلك الوجوه الصخرية الموزعة على امتداد الجدران، لا تترك للأحياء فسحة من عبث او تجاهل. اباطرة وحكام وتجار وملاكون، بأرديتهم الرومانية، ووجوههم المدورة المنتمية الى سواحل البحر. بدأا تأملها واحدا واحدا، تتوقف فاطمة اكثر من المعتاد امام تماثيل النساء، تتملى طويلا في عقودهن وأمشاطهن وخواتمهن وأساورهن، ثم تلكزه بين الحين والآخر منبهة الى عقد مشغول بعناية او قرط مليء بالنقوش. كان في ذهنه وجه واحد فقط، يفتش عنه بين الصخور الشبيهة بالبشر، هو زنوبيا. من خلف التماثيل، تنتصب مكعبات الزجاج التي حفظت تاريخ تلك الحضارة المندثرة: الخناجر والسيوف والمقاشط والأزاميل والفخار والأواني. العملات والحلي والأحجار الكريمة المكفتة بالذهب او الفضة. كانا وحيدين في القاعة، يتنفسان هواء الماضي، الذي تنفثه نظرات الغرانيت والأذرع الممدودة والوجوه الصارمة او المبتسمة. هل جاءت ماغي ياترى الى هذا المكان؟ من رافقها؟ نسيم بيك ام عازف العود المسحور بأغنية: الهوان ويّاك معزّة؟ قالت له فاطمة:

- تعبت من رؤية التماثيل، سأنظر الحلي، فامض انت الى صخورك.

تركته ووقفت الى جانب مكعب يحتوي على عشرات العقود المصنوعة من الأحجار الكريمة. رأى التماعة عينيها وهي تقف مثل آلهة

قديمة أمام الحلي. ومن بين عشرات التماثيل لنساء تدمر استغرب رؤوف انه لم يجد تمثال الملكة. اين هو اذن؟ هل اخطأ في قراءة الأسماء الملصقة على القواعد؟ هل وضعوها في ركن خاص بعيدا عن رعيتها؟ ايمكن ان تكون ماغي قد سرقته عبر معجبيها؟ جال جولة ثانية مدققة، وكان يقف امام تماثيل النساء فقط. انهن جميلات كلهن. ود لو عاش في تلك الحقبة المليئة بهذه الصدور العامرة والخدود الرقيقة والشفاه المنطبقة مثل حبات اللوز. ود لو يطبع قبلة على كل فم انثوي، علّ روح الحياة تسري اليهن، ثم ليتجسدن نساء حقيقيات من لحم طازج ونظرات شبقة. غافل فاطمة، وطبع قبلة سريعة على فم امرأة تدمرية، عيناها سوداوان وابتسامة رضى على وجهها الغرانيتي. لم تكن زنوبيا.

التمثال غير موجود.

فكر قليلا بالأمر واستنتج انه لابد ان يكون في مكان آخر. ربما في القاعة المجاورة. قال لفاطمة:

- سأسأل المراقب هنا عن تمثال زنوبيا، انتظريني.

خرج من القاعة ومضى الى مكتب صغير مجاور، يجلس فيه القائمون على الجناح، بين ملفاتهم وأوراقهم وكؤوس شايهم. اتجه الى الأكبر سنا وسأله بصوت هامس:

- الا يوجد سوى هذه الصالة لآثار تدمر؟

- هي الوحيدة في متحفنا كله.

- كنت اود رؤية تمثال الملكة زنوبيا، لكنه غير موجود على ما يبدو.

- وهل لزنوبيا تمثال؟

- طبعا لها تمثال، وموجود نسخة عنه لدى ماغي.

- من هي ماغي؟

وانتبه الى نفسه، فهو يتكلم من رأسه، من ذلك الماضي البائد. حانة الوردة الزرقاء ومصباحاها الأزرقان المثبتان على الواجهة وترهات البديري الحلاق. التصبحجية وسعدو القبضاي والمطعم النقال. الموكيت الرث ومخزن الرهونات وأعطاف ماغي المترنحة بين الطاولات.

لبث برهة صامتا وتدارك خطأه وردّ على الرجل:

- آسف كنت افكر بشيء ثان، لكن الا يوجد لزنوبيا تمثال مطلقا؟

- كلا، قيل ان لها تمثالا في متحف برلين، لكن الأمر مشكوك فيه.

كانت مفاجأة هائلة. ماغي تعيش في وهم اذن. انها معجبة بامرأة اخرى على ما يبدو. لم يقل شيئا ورجع معتكر المزاج الى القاعة. وجد فاطمة منتصبة امام مكعب يحتوي على اساور من الفضة هذه المرة، منقوشة بخيوط من الذهب ومكفتة بشذرات من الأحجار الكريمة ذات اللون الأحمر. وفي هذه اللحظة دخلت شلة من السياح الأجانب مع دليل، أخذ يشرح لهم عن حضارة تدمر باللغة الاسبانية. وجدها مناسبة لسحب فاطمة من سحر الأساور والخروج بها الى الممر. رأته معتكر الهيئة، منقبض الروح، فسألته عند البحرة:

- ما الذي جرى، لم انت منزعج؟

- لم اجد تمثال زنوبيا.

- وهل الأمر خطير لهذه الدرجة، الم تشبع عيناك من منظر تلك النسوة؟

صمت وحدق الى اشجار الكينا، والى السماء الزرقاء، وشاهد رف حمام ملون يطير فوق التكية السليمانية، ويمضي سابحا بخفة باتجاه قاسيون. هل يطير معه فوق البيوت والأزقة والحمامات؟ فوق مقبرة قاسيون وضريح الشيخ محي الدين بن عربي؟ لا يتطلب ذلك سوى برهة خاطفة من التركيز الشديد تنقله الى حالة التقمص. لكن لا، انه بحاجة الى كأس من البيرة في مشرب الكرنك، يستعيد به صفاء ذهنه، وهناك يتقمص روح ماغي. سيخبرها بذلك الوهم الكبير الذي تعيش فيه، فليس في الدنيا كلها تمثال لزنوبيا. سمع ان ماغي لا تزال حية، وهذا يسهّل عليه اخطارها. اما زنوبيا فهي اسطورة، والأسطورة لايمكن ان تتجسد في كتلة من الصخر. تستعاد في كتاب مثل مذكرات البديري الحلاق، اجل، لكن ان تتحول الى حجر جامد فهذا هو المستحيل بعينه.

- اين نمضي الآن؟

سألته فاطمة، وهما يطلان على اعشاب بردى ويشمان روائحه الفاسدة.

بعد لحظة صمت عميقة، أجابها بذلك النمط من اجاباته القاطعة التي لا يقولها الا حين يكون حاد المزاج:

- الى البيت....

* * *

ما ان ماتت فاطمة تلك الميتة المؤلمة، على اوتوستراد المزة، حتى قطع رؤوف كل الخيوط التي تربطه بالاتزان والمنطق. تلاشى حتى اهتمامه بتمثال زنوبيا. اصبح يسعى الى قتل وقته بأي شكل كان.

يسهر، يهيم على وجهه في ازقة باب توما، يجلس ساعات عند ضريح الشيخ محي الدين، يسعى وراء النساء، يلبث في بيته الذي انتقل اليه في مساكن برزة، منغمرا في تأملات تمتد الى عشرات السنين الماضية. هذا عدا عن رحلاته التقمصية التي عادة ما يصير فيها عصفورا او طائرة أو قبرا او شجرة زنزلخت أو دبورا. كما صار لايخشى البوح عن أدق أفكاره وهواجسه، وأسراره احيانا. اخبرخليل ان سامية زارته، قبل ان تكسر يدها، في بيته، وجلبت له زريعة ياسمين، تفتحت فيها زهرتان بيضاوان. قالت له تذكرني كلما شممت رائحة الياسمين. غسلت صحون المطبخ ونظفت الأرضية ومسحت الأبواب وجمعت النفاية في كيس كبير انزلته معها. طبخت له مفركة كوسة وعملت له الشاي، دون ان تنسى صدّها له كلما حاول لمسها. ما الذي يجذبها اليك؟ سأله خليل. قال حكمة الشيوخ وثرثراتهم. النساء في عمر سامية يفتقدن رجلا بهذه المواصفات، خاصة اذا غاب الجنس عن الجلسة. ثم سأله بفضول: هل ضاجعتها؟ قال كلا، لديها عدد كبير من المعجبين. لن تلتفت الي. هناك بعض العلاقات مع النساء تخرب ما ان يدخل الجنس فيها. خاصة اذا كان الطرفان غير متكافئين. هي جميلة وأنا قبيح. هي شابة وأنا شيخ، فكيف نلتقي؟ يكفي انها تبوح لي بأسرارها. اسرار النساء جميلة مثل القبل. لو رأتها ماغي لغارت من جمالها. لكن سامية غير ماغي، فهي سيدة مثقفة ورصينة وتستمتع بالحياة. انها تغني احيانا، وتمتلك صوتا شجيا، يشبه صوت ماغي. ماغي ملكة شارع شبكاغو، حدثتك عنها. شارع شيكاغو قريب من مقهى الهافانا، تعرفه؟

وذاكرة رؤوف وحيد الدين تغري الجميع بامتصاصها. فيه شيء

يجذب ويسحر. عمقه. أوجه روحه العديدة. فلسفته البراغماتية عن الحياة المختلطة بشيء من الحكمة. فكر خليل كثيرا بشارع شيكاغو، ورجع اليه بكل حواسه. على الأقل كلما لمح عينيّ رؤوف. راح يستمتع بصوت ماغي، امبراطورة الشارع وملكة خمارة الوردة الزرقاء بلا منازع، وأغانيها الملهبة للخيال. كما رافق في الخيال رؤوف وحيد الدين ايام صباه، حين كان مشردا بين الأزقة والبيوت المشبوهة ينشد لذة دائمة. قرأ كتاب البديري الحلاق وهو يتخيل ايام اسعد باشا، وهذا ما دفعه لزيارة خانه اكثر من مرة والسرحان في قبابه وزخارفه وتصاميمه التي كانت ذات يوم من اعاجيب دمشق القديمة. دمشق الولاة والمكارية والرقّاصات والمسحّرين والحواة والجندرمة الذين تخافهم النسوة والصبيان. الا ان تقمصات رؤوف امتدت الى ذلك الكتاب ايضا، كتاب الحلاق وهذا ما فاجأ خليل كثيرا. قال انه حلم مرات عدة بكتاب يدوّن فيه يوميات دمشق، المدينة التي خبرها حجرا حجرا، ومحلة محلة. خبر حماماتها وخاناتها وبيوت دعارتها وحاناتها. بل انه كتب، حسب ادعائه، صفحات عديدة عن يومياته في دمشق، وفكر انها ربما هي ذاتها التي برويها في مجالس الشرب، وعند الجسور، وفي المقاهي. وهي ذاتها التي يكتبها عن اصدقائه، الذين يشربون الجن والريان، الجعة والنبيذ، ويخلطون الحلو بالحامض، المر بالحاد، كي يصلوا الى ارض احلامهم، صعاليك دمشق الذين يسكرون في قصر البلور، وسط باب توما ثم يفيقون صباحا في حلب، دون ان يسألوا عن سبب وجودهم في هذا المكان. فاطمة وموتها الذي هز كيانه من اعمق نقطة فيه. الوحدة بعد فقد الحبيب والأم والرفيق الذي تفيق في آخر الليل لتجده نائما جنبك

يتنفس بهدوء. كان موتها اعظم مصاب مر في حياته، كما قال بحزن وغصة وكبرياء.

خرج معها الى المزة لزيارة صديق طفولة يسكن هناك، وكانت في أكمل حلة لها. وضعت المناكير على أظافرها الناعمة، وطلت خديها الأبيضين بالبودرة الوردية، ووضعت لمسة من الكحل في عينيها.

كانت بارعة في تكحيل الجفون ومد الظلال الى الجانبين وخلق التماعة في الحدقتين. تعلمت هذا الفن بعد مران سنين لترضي هذا الرؤوف الذي تزوغ عيناه دائما نحو النساء الجميلات كما قالت. ارتدت تنورة طويلة، ذات أزهار فاقعة، تنسجم مع حذائها، ورفعت شعرها ذيل حصان، وظهرت رقبتها الطويلة التي لا تبين فيها سوى غضون صغيرة تركها الزمن. لبس هو ربطة عنق وطقما مخمليا، ورش قليلا من الكولونيا على وجهه الحليق، وكان يشعر بسعادة غامرة. تحرر من عبء القراءات الثقيلة التي ارهقته النهار كله، خاصة وهو يفيق منذ الفجر ليتجه مباشرة الى طاولته. يشرب القهوة ويدخن ويقرأ.

في ذلك العصر الخريفي كانت المزة حديقة من الألوان.

الواجهات مزينة والشبابيك مسدلة الستائر، والأشجار في أول اصفرارها.

ضوء الخريف ينسكب من السماء برقة، والهواء عذب يتغلغل في المسامات بهدوء. لم يكن رؤوف يحس بشيء خاص، يمتلئ بطمأنينة غريبة نسيها منذ فترة طويلة. ينتظره ليل من التسلية والذكريات والنكات، وشعر ان عليه استعادة الشباب عبر ذلك الصديق. اما فاطمة فكانت تسير جنبه، انثى مستقرة، جسدا وروحا. انجزت اشغال البيت

بحبور ونشاط، وهيأت نفسها لسهرة ممتعة. الأمر الذي لن يغفره لنفسه هو انه أفلت يده من يدها بحالة نزق صبياني، ظل كامنا في روحه. انه متعجل دائما ومتهور في بعض الحالات. لم ينتظر توقف السير كلية لكي يعبر. قطع الشارع ركضا، وحسب ان فاطمة ورا ه. ثوان فقط، ووجد نفسه على الرصيف. اما فاطمة فتبعته لكن بتردد الأنثى وهي تواجه الخطر. ثوان فقط لم يستطع ادراك ما جرى فيها. وجد فاطمة ممدة قرب الرصيف، وثمة سيارة مسرعة تندفع نحو ساحة الأمويين.

كيف حصل الأمر، بل ماذا حصل؟ ما الذي تعمله فاطمة على الأرض؟ ومن مددها هكذا، ولم هي مضرجة بالدماء؟ غامت اضواء الخريف، ودخلت البنايات في شواش سديمي، وتحول كل ما هو متحرك الى كائنات لا شكل لها. لم يعد يرى سوى ذلك الجسد الذي حمله الى الرصيف، ومدده على الأرض، ثم جلس قربه لا يعرف ماذا يعمل بالضبط. عينا فاطمة نصف مغمضتين، تحدق الى رؤوف، وغائبة عن الوجود في الآن ذاته. تلخصت حياته بذلك الجسد المدمى، فاقد الحس. انه الموت، يقترب من لياليه ونهاراته، يقص بمنجله ياسمين عمره، ويتركه الى فضاء الوحدة. خيط احمر يسيل من فتحة الأنف، وارتعاشات الحياة المنطفئة تتساوق في الرقبة والأصابع المطلية الأظافر بالأحمر. ساقان ملفوفان بالحرير، وفردة من حذاء ظلت هناك، وسط الشارع. أين البشر الفانون؟ أين سيارات الاسعاف؟ أين ذلك الصديق الجالس انتظارا لضيفين لن يصلا؟ لقد انتشلته فاطمة من مباءة شارع شيكاغو، واغواء عاهرات المرجة، وسفرات تركيا المليئة بالسمك والويسكي والنساء. مقاصف بيروت وسهرات الجبال ومراهنات القوى الذكورية. وضعته على

سكة واضحة استطاع بعدها الحفاظ على القليل مما تبقى من ثروة ابيه.

اتريد ممارسة الجنس، سأوفره لك كما تحب وتشتهي. انت راغب بحب وغرام، سأحبك حتى اللحظة الأخيرة من عمري. قالت له. سألخص لك النساء أجمع، العاهرة والشريفة، الداعرة والمتهورة، الجميلة والقبيحة، الساخنة والباردة، العارية والمتحفظة، اقعد فقط في البيت وانتبه الى نفسك. اسكر هنا، اجلب من تشاء من الأصدقاء، لكن كن جادا في حياتك. لقد جربت كل شيء ولم يعد هناك من جديد. لن تجد سواه في النهاية، فهو متشابه لدى كافة النساء.

حكمة نسائية فكر فيها بعمق، ووجد انها صحيحة مئة بالمئة.

في البيت كل قطعة من الأثاث نظيفة، والملابس معطرة، والطعام وفير وجاهز، في الصباح او في وقت متأخر من الليل. وكانت فاطمة جاهزة له في كل حالاتها، حتى حين تدخل في العادة الشهرية. لا تمتنع عليه أبدا. كيف ينسى هذا الجسد الذي اذاقه المتعة ووفر له الالفة؟ وهل يجرؤ الموت على التقاطها بمنخسه ليرحل بهذه البساطة؟ والمارة صاروا يتجمعون حولهما ويتساءلون. ما الذي جرى وكيف ومن هو المسؤول. من هو المسؤول؟ سأل رؤوف نفسه وهو يحدق الى عينيها الكامدتين، وجيدها المتيبس وشعرها المبعثر، وقد علقت فيه قطرات دم. العشق، الحب، الزواج، الأمومة، المرأة، كلمات لا تعني الكثير، لانها مجرد كلمات. هناك ما هو اكبر وأشد وقعا في القلب. المشاعر، الفقد، الثكل الذي لا لقاء بعده، الانشطار الدائم، الوحدة بعد مضي المحبوب دون رجعة. الكمال هو التحام جسدين. جسدان يعشقان بعضهما، وينسيان وجود زمن او حياة خارج ذلك الالتحام. ذاك هو الكمال. الوصول الى

ذروة الخلق. التوحد الصوفي بين الروح والجسد والغياب المطلق عما هو متجسد ومنظور. وهل يتم هذا دون عنصري الفحولة والأنوثة؟

يبدأ بالموت وينتهي بالفلسفة، رغم بحر الدموع المحتبس في دواخله.

انه الموت اذن؟ الرحيل الذي ما بعده عودة.

بدأت الكائنات تغيم في عينيه، الضغط في داخله أكبر من كل حواسه. الأصوات صارت تتلاشى، اختلطت في البدء مثل هدير عملاق، وما لبثت ان انسحبت قليلا قليلا الى سكون غريب. وعلى الأمداء تحركت كتلة من عتمة، كانت خفيفة في البدء، ثم جعلت تنسدل على ما هو ثابت وما هو متحرك. طغى بعدها السواد كأنه ليل فجائي. بعد كل ذلك تهاوى رؤوف جنب فاطمة، غائبا عن الوعي.

ومنذ ذلك الحادث الأليم، عاد ثانية الى عالم الصعلكة واللامعنى والتشرد.

* * *

كان المحدث الذي لا يمل ولا يكل عن ايام زمان.

عن ذكريات قاع هذه المدينة قبل ان تدخلها قصيدة النثر، او تترصع اطرافها بأحزمة الفقر والمهاجرين والمشردين واللاجئين من حروب خلت. رؤوف وحيد الدين. لم يفهم احد هوسه بشارع شيكاغو، ولا السبب الذي جعل من شخوص ذلك الشارع وندله ومريديه فضاء حكائيا له، هل كان واحدا من رواده؟ هل اشتغل قبضايا في حانة من حاناته؟ يطرحون الأسئلة ويشتطون بالاجابات، هذا حين يغيب عن المقهى او يختفي لأيام

في بيته. حكايات شارع شيكاغو متواصلة، يلذ لرؤوف روايتها في كافة الظروف.

في حانة شارع بغداد وحين يتوج العرق على رعية من السلطة واللبنة المثومة والطرشي والخبز المحمص، وتدور كؤوس العرق بيضاء وذات رائحة نفاذة، يستل من جرابه حكايات اللوطيين. حين تفوح في الحانة رائحة الخبز المحمص واللحم المشوي مع البصل والبندورة، لا يبقى من الأحاديث الا حديث الجسد. جسد المرأة وجسد الرجل. يختلط شارع شيكاغو بساحة المرجة. حانة بغداد بنادي الصحفيين. جسر الهامة والجسر الأبيض. يقص كيف بدأ واحد منهم حياته اللوطية. في البدء حين دربه جارهم على ركوب الدراجة الهوائية، ثم لاحقا كيف اشتغل صبيا لحمّامي في سوق سريجة. اخذ هذا يعيره لاصدقائه في عتمة الحمام، ليقع عليه اخيرا وقد تقدمت به السن، وداوم على مشرب الكرنك في ساحة المرجة. حدث اللقاء بعد سنين من ايام شارع شيكاغو الذهبية. اما اذا اجتمعوا في نادي الصحفيين فيلذ لرؤوف ان يحدثهم عن الراقصة الشهيرة، وبائعة الهوى البارميد التي جننت ارستقراطيي دمشق في عهدها الذهبي، ايام عز البكوات والباشوات والتجار الكبار والموظفين المستبدين. فالمكان اكثر رقيا من ان تحكى فيه حكايا اللوطيين، او مضاجعي الحيوانات. انه ملتقى للفنانين والصحافيين والفنانات والصحافيات والممثلات، وكتاب القصة والشعر. يرتاده رسامون اقل شهرة، وسياسيون مبتدئون وهواة الثقافة. وفي مثل هذا الجو المحترم من المعيب الحديث عن الجسد. لهذا كان الصعاليك يتهامسون اثناء رواية، قصصهم القذرة تلك، كما سمتها امرأة عاشرتهم

اياما ثم هربت. لكن في حانة شارع بغداد كل شيء مباح، فهناك خليط القوم، من قاع المدينة: نور وضباط وصعاليك ولصوص وأفندية آخر زمان، مع انه ارقى قليلا من حانة فريدي التي لا تبعد سوى عشرات الأمتار عن مقهى الروضة. عجلة الحكي عند رؤوف لاتكف عن الدوران.

انه مطحنة لغوية كما وصفه خليل وزكي وابراهيم وسامية. من تلك المطحنة تخرج قصص النساء وعاهرات المرجة والقوادين والتصبحجية والسقائين وقارئي الفال ومتصيدي الأطفال في الحدائق. تخرج الشائعات والتحليلات السياسية وأشعار المتصوفة ونوادر الظرفاء، وتجليات تقمصاته التي يوسع بها الواقع الصلد، ويحتمي بها من اشواك الزمن. تخرج من بين أسنانه الملوثة بالتبغ احجام اعضاء الرجال، ومقاييس صدور النساء، ونكات السكارى، وعبث الفتيات فيما بينهن، بليالي الوحدة على سطوح لا ينيرها سوى قمر شاحب. يكاد ان يغيب خلف قاسيون. أجاب رؤوف ابراهيم السمكري حين سأله عن تقمصات اللحظة التي انهيا فيها جلسة من جلسات حانة بغداد، قائلا، وهو عادة لا يعصي له امرا ولا يرد طلبا، فهو مستقيم، يتمتع بأجمل ابتسامة بريئة عرفها في حياته، كما عبّر عن ذلك في مقهى الروضة قبل ايام.

قال رؤوف: دخلت في صحن المسبّحة وتحولت الى ذرة حمص صغيرة، بل وأصبحت الذرّة اياها، يحيط بي غلاف من زيت الزيتون. رائحته لذيذة تذكر بجبال عامودا والقامشلي وماردين، ونظرت واذا انا ببحر متلاطم من ذرات الحمص، المغلفة بالزيت. كنا مثل جنود متأهبين لمعركة. اختفت احزان زوجتي والأولاد ووجوه شلة شارع شيكاغو. وقفت في نقطة الوحدانية، حيث لا امام بعدك ولا خلف. لا فوق ولا تحت.

لزوجة فقط. بعدها دخلت في سيخ الحديد الذي يحمل افخاذ الدجاج. رأيت القلعة الحديدية المربعة التي تحيط بي، حولي نيوترونات والكترونات، وفي البرزخ امداء شاسعة وصحارى. كان كل شيء كامد وساخن. لا خضرة ثمة ولا انهار، تلك الصحارى المعبأة بصخور الحديد وهي تتماوج يمينا ويسارا. كاد نفسي ان يضيق وكادت روحي ان تخرج من جسدي وظننت انني في الجحيم فخرجت سريعا من هناك وأنا في شوق لتقمص اشياء اكثر حميمية، مثل اغصان شجر شارع بغداد وفم تلك الصبية التي مرت قبل لحظة، وذلك الطير الذي يحط على نافذة البيت المقابل. ما الذي يعمله الشخص في جفاف هذه الحياة المحيطة؟ احيانا تكون الرؤية كئيبة، خاصة اذا اصبحت المشاهدات متكررة. انني اعاني من هذا الأمر كثيرا. تلتقي السحنات ذاتها. ترى العمارات ذاتها. تسمع الأصوات تتكرر في كل ساعة ويوم. لا يعود امامي من مهرب الا الدخول في عالمي السري. تلك موهبة لديّ، احسد روحي عليها بعض الأوقات. ليس كل شخص يمتلك هذه القدرة. ادخل الى ما تحت الغلاف. الى ما لايرى. اغامر مثل قبطان محترف في مصارعة غرائب تلك الأنفاق والفجوات والعواصف، وهي تحتدم خلف عين صديق او باطن آجرّة من ايام عبد الملك بن مروان، او في تلافيف رغيف خرج توا من النار. ذات ليلة اردت تقمص جسد زوجتي فاطمة في القبر فلم افلح. اليس هذا غريبا؟ اعتقد ان البشاعة الموجودة هناك منعتني من تنفيذ رغبتي. او هو حدسي الداخلي في ان احتفظ بها جميلة كما عرفتها. الموت لا يجلب سوى البشاعة. تخيل سلاميات القدمين، قوس الخصر، تلتي الحاجبين، زغب الفخذين قبل تحوله الى غابة، عقدة الشرج

البنفسجية الملتمة على نفسها، عارضي الخدين. تخيل كل ذلك وقد غاب في كومة التراب.

كيف لي تقمص موت فاطمة؟

احلى الأوقات تلك التي اخترق فيها رأس احدهم وأعيش ما يفكر فيه وأحسه. هذا هو اللعب البريء وهو يزيل عبوس الأيام ومحدودية الخيارات عند الانسان. مرات استخدم هذه الموهبة لجذب النساء. اجلس الى امرأة فأدخل في رأسها. اصور لها حميمية التلاقي الجسدي. ادعها تحس بالعري. اتعرى لها. اداعبها بيدي في اكثر اماكنها اثارة وحساسية. اصوّر لها جماليات العناق في السرير. حين ترتطم الأجساد بعضها ببعض وتتداخل في ضياع الأرواح وأشواقها. افحّ الروائح وأنفث السوائل وأشكّلها مثل عجينة في موضع التماس، كل ذلك وأنا احدق في عينيها وأعيش في تلافيف دماغها. لا ارى بواطن اللحظة فقط بل تلك الينابيع الماضية التي شكّلتها. الماضي يسحرني، يمتصني الى مستنقعه دون مقاومة احيانا.

على الفرد ان يتقبل حقيقته كما هي، حتى لو وجدها بشعة بوجه من وجوهها.

سمع ابراهيم وزكي وأكرم تلك الآراء مكررة من رؤوف، بصيغ وتعابير، تختلف من يوم الى آخر.

كان الثابت الوحيد في ذاكرته شارع شيكاغو.

كلما روى شيئا عنه يوسّع من وجوده ويضيء قصة من قصصه.

كان مثل منجم غني بطبقاته الصخرية، ومعادنه وعروقه الثمينة.

* * *

لم يكن جميع الذين يشربون صباحا في شارع شيكاغو تصبحجية، اذ ليسوا جميعا كحوليين طبعا.

فمنهم من يجيء للتسلية او التحديق في قوام ماغي البارميد، مثلي أنا. تهز أعطافها وتتثنى بين الطاولات والبار ومخزن الرهونات والباب الخارجي. هذه الحقيقة يعرفها ابو واكيم ومساعدوه من الفتية الصغار. كان بين التصبحجية مدمنون عاديون يبدأون حفلهم الكحولي عند الحادية عشرة صباحا، بعد تناولهم فنجانا من القهوة، وتدخينهم سيجارة او اثنتين وتبادلهم الحديث مع التنين وأبو الفهم او المطعم النقّال، او غيرهم من رواة الأحاديث والأخبار. تلك ايام جميلة من حياتي، كنت لا أعبأ بمن جاء وراح، ولا بمن حكم او سقط. السياسة وهمومها لم تعنني، وان كنت اتأمل وأتألم واقرأ وأحلل الوقائع. تجارة الصابون التي اورثنيها ابي تشتغل جيدا، بيوت ودكاكين، وأنا اقبض كل شهر أموال قارون. لا أحسب كم صرفت في اليوم. فالمتعة بالنسبة لي هي البقاء على قيد الحياة، اضاجع بلذة ونهم، اسافر، اقرأ. احلّق في الخيال مع ابخرة الخمرة، وأتسلى بصحبة اخوتي الصعاليك. ومن اولئك التصبحجية تأسس نادي الكحوليين في شارع شيكاغو، وقد ولدت الفكرة بعد ان نوقش الأمر على طاولات الوردة الزرقاء اكثر من ليلة ونهار. اشترك في الحوار عشرات من المدمنين والقبضايات، ومن تشمعت اكبادهم وجلسوا ينتظرون موتهم. كل ذلك من اجل معالجة الأوضاع المادية البائسة لشريحة واسعة من الكحوليين المدقعين، الذين تفرغوا كلية لمهنة الشراب. هذا رغم ان افراد تلك الشريحة يشربون عادة تطفلا على موائد الآخرين، نصف كأس من هنا ونصف كأس من هناك. مثلما

يفعل اليوم سامي الدباس وماجد الابراهيم وزكي عاشق القبور. كأس من وافد جديد الى الخمارة، وآخر من عند واحد ربع بطاقة يانصيب وسقى كل من صادف وجوده في المكان.

لا تستغربوا الفكرة. مثلما هناك ناد للرياضيين والمهندسين والضباط والمعلمين، لم لا يكون هناك ناد للكحوليين؟

بعض الكحوليين كان يحصل على اعانات من زكاة الصوم او الفطر، من رجال تابوا بعد سكرة طويلة وحجوا الى بيت الله الحرام الا انهم ظلوا يتذكرون رفاق الأمس، وعذابات فقدان النقود، بعد اشتياق الروح الى كأس مترعة من الخمرة. لا يعتبرون ذلك حراما او عيبا، فهم مروا بظروف مثل تلك، ويؤمنون بالآية الكريمة القائلة: (انك لن تهدي من احببت). او: (يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء). ويعتبرون انفسهم محظوظين كون الله هداهم الى الطريق المستقيم، قبل ان تتشمع اكبادهم ويموتوا. نسيان رفاق الأمس مستحيل والله يغفر لمن يشاء، كما اعتاد اولئك على المحاججة كلما نوقشوا في دفع تلك الجعالات الى السكيرين. ومع ذلك، يمتلك أبو واكيم دفترا سميكا للدين، سجّل فيه ديون مئات الزبائن على مر العقود.

يمكن اعتبار ابو واكيم من نمط الجرّاحين في المستشفيات العامة، او مغسلي الأموات، او حفاري القبور. الرحمة عنده كلمة فقدت مضامينها، او قولوا انه اعتاد الموت حتى صار كأسا مترعة بين يديه. لايهمه من يشربها من الزبائن. ومع انه لم يتجاوز الستين من عمره الا ان ذاكرة الأسماء عنده تعود الى فترات سحيقة من العهد العثماني.

يحتفظ ابو واكيم بدفاتر ديون عتيقة من زمن اجداده، تجمّعت من

المحلات العديدة التي تنقلت فيها أسرته قبل افتتاح جده خمارة الوردة الزرقاء، وقد استخدم المؤرخون تلك الدفاتر لتوثيق الأسماء التاريخية ولمعرفة القيمة الفعلية للعملة. يقرأ المرء فيها الليرة العصملية والمجيدي والروبية والنكلة والدرهم والقران والعانة والجنيه والدينار والفرنك ونصف الفرنك، وما الى ذلك من عملات، لا تتداول في البلد فقط انما في الدول المجاورة كذلك. ونتيجة للخبرة الموروثة والمكتسبة في معرفة وجوه البشر، وجوه زبائنه بالذات، تضلّع ابو واكيم في تشخيص امراض رواده ودرجات خطورتها. يلحظ انتفاخا في البطن وضمورا في الساق أو شحوبا في الوجه فاقعا، فيطلق جملته الشهيرة: اقطعوا عنه. يقولها لندله فيعرفون السبب. يوقفون الدين، نظرا لاقتراب موعد رحيله الى العالم الآخر. يكف عن تقديم الكحول له، ثم تبدأ المشاحنات التي تدفع الزكرتية الى تسديد ديون ذالك المقبل على القبر. زبائن شارع شيكاغو انواع: مفيز وآخر لم يحصل بعد على الفيزا، او لم ينو على السفر والمغامرة. مستور، اي يمتلك النقود، ونصّاب، أي يمتلك يوما النقود الكثيرة ويوما يجيء مفلسا جائع البطن. وتلك مصطلحات اختيرت بدقة، وشاعت لا في خمارة الوردة الزرقاء فقط، انما في عموم شارع شيكاغو. وهكذا هي تصنيفات ابو واكيم: الفيزا كما يعرف رواد الوردة الزرقاء هي تشمع الكبد، اقتراب اللحظة التي يموت فيها الشخص ويمضي الى السماء. وما ان يلحظ سكيرا حصل على فيزاه حتى يخترع مئات الطرق لاسترجاع ديونه، اولاها التحايل في جر النقود من المعني، وآخرها عمل جمعية من اصدقائه لكي يسددوا الديون.

وخمارة الوردة الزرقاء، درة شارع شيكاغو، لايمكن معرفتها جيدا

دون المضي الى مخزن الرهونات.

ثمة باب ضيق قريب من نهاية البار يؤدي الى غرفة صغيرة محشوة بالأغراض والغبار. صندوق عجائب، تحار العين حين تتملى بما هناك من بضاعة. بضاعة لايجمعها اي رابط. انه مخزن الرهونات كما اطلق عليه ابو واكيم. معاطف وقفازات وقبعات ومظلات وحقائب يد وساعات وخواتم ومسابح. وأبرز ما هناك، وتعتبر من كنوز ابو واكيم، تلك المخطوطة العتيقة المركونة على رف واطئ، وكان ابو الفهم يقرأ منها دائما للزبائن، ولكن فقط بطلب من ابو واكيم. تقع المخطوطة في احدى وستين صفحة ومئة. طول المكتوب منها سبعة عشر سنتيمترا وعرضه عشرة سنتمترات، وفي كل منها تسعة عشر سطرا على الأغلب، وقد تبلغ العشرين او تنزل الى الثمانية عشر من الأسطر المكتوبة بالخط ذي القاعدة الفارسية المشرقة البينة. كتب على الورقة الأولى ما نصه: تنقيح نخبة الفضلاء وريحانة الألباء، ذي المجد السني، والفضل السعي، الشيخ محمد سعيد القاسمي، لحوادث دمشق اليومية الواقعة في القرون الخاليات، وجمعها الشيخ احمد البديري المشهور بالحلاق الدمشقي.

اما أطقم الأسنان فكان لها درج خاص ومستقل. ورغم ان احاديث الأشخاص ليس لها معنى في بعض الأحيان، وتسترسل دون رابط او موضوع، ويقطع حديث الشخص مرارا وتكرارا دونما وجود اي حاجة لاكماله ولا احد يتذكره بعد ثوان، ولن يسأل احد عن النهاية او التكملة بل وينسى في الحال، غير أنه يحدث ان يشتبك الحوار حول موضوع شائك ومهم له علاقة بحادثة او بشخص. يحدث ان يكون القول الفصل فيه لأحد الذين رهنوا طقم اسنانهم، فيتلعثم بالنطق لعدم ارتدائه الطقم،

كونه في مخزن الرهونات. هنا تقع المشكلة، وتصبح عامة وتحتاج الى حكمة لمعالجتها. وهي كثيرا ما تحدث. ذات يوم، ردد التنين جملته المركزية الحاسمة في احد النقاشات الحامية عدة مرات، دون ان يفهمها انسان، فما كان من أحد الحاضرين المتحمسين، وكان طرفا في النقاش، الا ان نتر مئة ليرة من جيبه وفك رهن طقم أسنانه وناوله اياه على عجل وساعده في وضعه في فمه. التنين لا ينطق كلمات مفهومة لأنه دون اسنان، ولسانه متخشب دائما من السكر والنوم. احتج التنين بأن الفك السفلي ليس له. كيف ينطق جملته وهو يرتدي طقم غيره؟ بادره المتحمس قائلا: خلصني انطق الجوهرة والا سينفجر قلبي. وبعد جهد كبير انهى التنين جملته التي فهمها الجميع. توضحت الأمور أخيرا للحاضرين. انتزع المستمع الطقم من فمه بعصبية واسترد المبلغ من ابي واكيم. وكانت تلك واحدة من طرائف خمارة الوردة الزرقاء، في شارع شيكاغو.

جاءت تسمية الشارع الصغير، الذي أشاب رأسي، وملأ قلبي بالهموم والأحزان، شارع شيكاغو، من زواره. هم سبب هذه التسمية.

خليط عجيب من بلطجية دمشق وزعرانها وقبضاياتها. زبائن من الميدان وركن الدين والقابون والصالحية العليا وباب توما وباب المصلى. من الغوطة ودمر وباب الجابية والقنوات. من عين منين ودوما وعين ترما ومعلولا ذات النبيذ الحلو. تبدأ ماغي البارميد عملها في الحانة بتقديم المشروبات وتوزيع الكلمات والغمزات والضحكات. تبادل الجميع الغزل والنكات والقفشات، فيروح هذا الخليط بترتيب اموره من توزيع الخوّة المقبوضة في الليالي السابقة، وتوزيع المهام في الملاهي والبارات

والمواخير، ثم تتم اجراءات اخطر من ذلك وسط كؤوس الويسكي وسجائر الروثمان والحشيشة احيانا، لتصفية الخصوم في التحديات المسائية. ويحكم المخالطة بين البلطجية والكحوليين ولدت علاقات ودية بين الفريقين.

الكحوليون مسالمون. البلطجية متجبرون. الكحوليون يستدينون. البلطجية يدفعون بكرم الى الندل ويضيّفون اصحاب الفيز وينثرون النقود تحت اقدام البارميدات.

الكحوليون بلا كرامة، يتقبلون كل الشتائم التي توجه لهم، على شرط ان لا يقطع عنهم البلسم الشافي، كحولهم الكاوي للحلوق، الراقص في بطونهم الخاوية مثل سعدان مكلوب. لكن كلمة واحدة نابية او غير موزونة توجه الى واحد من البلطجية تقود الى مجزرة ربما تسيل فيها الطلقات والدماء وترفع السكاكين والقامات والبلطات، والشنتيانات والأمواس الكبّاسة والقناني المكسورة التي تتحول الى شظايا قاتلة في وجه العدو. البلطجية يخاطبون البارميدات بكلمات نابية وبذيئة، في حين يخاطبهن الكحوليون بتأدب جم، كما لو كانوا ينادون واحدة من زوجاتهم او بناتهم او قريباتهم.

الموت في شارع شيكاغو زبون دائم. ولمن تشمعت اكبادهم من الكحول أمنية ورغبة ودعاء. يدخل الوردة الزرقاء دون استئذان، يلبس قبعة سوداء مستديرة، وعيناه جمرتان تتلظيان. يحمل في يده مذراة حديدية يلتقط بها الأرواح. صامت لا يجامل احدا. يتقمص بعض الأحيان اسلحة البلطجية والفتوات ويسخر من الجميع. البلطجية الذين اعتادوا الجلوس عند الواجهة، كي يرصدوا من يدخل الى الشارع او من

يخرج او يتسلل، يستمتعون وهم يشربون الكؤوس باستعراض اسلحتهم وتنظيفها والتباهي بها وتجريبها احيانا. مسدسات وكندرجيات وبونيات وشنتيانات، تصبح محط انظار المساكين، اولئك الذين قطعوا بطاقات رحلتهم الى السماء. من وضعوا اقدامهم في طريق اللاعودة، وعقدوا مع الموت صداقة متميزة وخاصة.

صار الموت جليسهم وواحدا منهم. كان يسترخي معهم على الطاولات برداته الأسود وقبعته السوداء وضحكته الملتبسة غير المفهومة، ملقطه طويل يستل به،غفلة، أرواح من جذبتهم هيئته فارتاحوا لها. لم يفكروا ابدا بالانتحار، الا انهم لم يمانعوا في ان يكرمهم الموت بحضوره. انهم ينتظرون اشاراته، يديه الرحيمتين اللتين ستحملان ارواحهم الى فوق، الى حيث النجوم البعيدة والصمت المطلق والظلمة الفوقانية، التي تغرد في طياتها وأشجارها الوهمية طيور الحب والبلابل والعصافير. تلك حياة افضل بكثير من التشرد في ازقة المرجة وتسول السواح في مشرب الكرنك او اصطياد صبي في ازقة الشيخ رسلان. تلك الحياة الحمى المتوارية خلف الشبابيك والرازقي والياسمين ودلأيات الورد المعروف بعين الذيب. ليتهم عاشوا في زمن آخر، تكثر فيه التكايا والخانات والجعالات وخلصوا من هذه العيشة.

لا تسلية هناك تضاهي تسلية ابو الفهم. وهو كما سمعت لاحقا من تسبب في اقفال شارع شيكاغو برمته. قل هي المتعة القادمة من خارج الشارع والمدينة والزمن.

* * *

انتقل رؤوف الى منطقة مساكن برزة. اختارها بعد ان توفيت فاطمة وظل وحيدا، وعاش حياة حرة لا تخطر على البال. كل صباح لديه يوم جديد. لا مشاريع، لا خطط، لا هدف. لم يتأكدوا تماما فيما اذا كان يدوّن يوميات المدينة حقيقة ام ان القضية لاتعدو ان تكون لغزا من الغازه. وبيته كان صغيرا، ومؤقتا لسبب بسيط انه حين استأجره لم يوافق ذوقه، عتيق اولا، ولأنه بغرفة واحدة ثانيا. يدخل اليه بدرج ضيق، يمتلئ عادة بمخلفات الحمام القاطن في السقف الحديدي. اما الحارة فمتخلفة، القاطنون فيها لم يقرأ احدهم جريدة في حياته. كانوا ينظرون اليه شزرا حين يدخل او يخرج، لا لشيء الا لأنه رجل وحيد، ويجلب جرائد ومجلات وفتيات، اما يلتقطهن من المرجة او من الشوارع او يعقد صداقة معهن لا تستمر طويلا. ما عادت مواصفات شكله ترضي النساء، خاصة قلح اسنانه وتجاعيد وجهه وتلك النظرة الشكوكية التي تنفذ الى الأعماق، مستجلية الأفكار والأحاسيس.

لكن ما اغراه بالبقاء في ذلك البيت امر لم يخطر له سابقا. قرأ عنه في الكتب فقط، واكتشفه بمحض الصدفة، بعد رجوعه من جسر الهامة، وكانت الغرفة الواسعة المفتوحة على الأشجار في الفضاء الأسفل، تجلب الراحة للنفس، اذ ان الطيور في الصباح تشدو له اجمل اغنياتها، كما ان الفراشات كثيرا ما حامت وسط الأغصان، سويّة مع الدبابير والنحل والبق. ليس لقاؤه بماغي المعاصرة، كما سماها للشلة، هو ما اغراه بالبقاء في بيته الجديد، قصة ماغي المعاصرة ظلت تبهرهم من فم رؤوف عدة اسابيع الى ان استجلى سرها وأصبحت حكاية من حكاياته يرويها للجميع. ولا اشجار الفلفل البري المعرشة قريبا من

الشباك. ليس الفراشات المحرمة في الغرفة ظهرا، ولا شدو العصافير عند ساعة الفجر. فلقاؤه بصديقته الغامضة لم يتم الا في الشتاء. ما اغراه هو اكتشافه المثير الذي ارجعه الى مرحلة الصبا، حين كان بصّاصا على البيوت في الليل، وعلى ما يجري في الحمامات الشعبية، وما تقوم به النساء اثناء القيلولة.

بعد رجوعه من جسر الهامة، وكانت الشمس في بداية طلوعها، وبعد تلك الخطب الفلسفية التي اعتصرها فكره عن الشذوذ والتوحد بالاله وخطايا الجسد والانتحار، وضع رأسه على المخدة فامتنع النوم عليه. قرر ان يضلل أرقه بالتفتيش عن شيء لا يعرفه داخل البيت. شيء غامض، لم يستطع تقمصه. حاول ان ينام وعيناه مشدودتان الى الأغصان فرأى عصفورا يلتجئ من الضوء الى أوراق ملتفة. دخل في ذلك الكائن الصغير، وولج الى مخه، لكنه هذه المرة لم يستطع معرفة ما يفكر به. تخيل نفسه العصفور ذاته، قلّص مخلبيه، سحب منقاره الى اليسار وحدق الى هذه الفسحة المفتوحة على عتمة غامضة. نفش ريشه، وأحس بالهواء يتخلل الجذور، ويبرد الجلد الممتلئ بالمسامات. مرت طائرة في السماء شتت صوتها ذهنه فخرج من كونه عصفورا، ليرجع رؤوف الكهل الذي يستلقي على سرير عريض من الخشب، في مساكن برزة. كالعادة، وحين يمل من الجولان بين المطبخ والحمام والدرج، يلقي نظرة على الياسمينات التي جلبتها سامية له قبل اسبوعين. مضى الى الحنفية وجلب الماء بدولة القهوة وسقى الياسمين. سالت المياه الى الدرج، وغسلت شيئا من مخلفات الحمام. هناك ياسمينتان بيضاوان متفتحتان فوق الفخّارة، وهذا يعني ان الحياة ما فتئت تمنح الجمال. ليس صعبا

عليه شمهما وسط حيرة هذا الصباح. عليه جلب خادمة لتنظيف البيت، فكّر، وان استطاع اغراءها بالنقود فستكون الفائدة مزدوجة. لم يعد لديه القدرة ولا المزاج لمزاولة شؤون التنظيف والترتيب. المصبغة حلت له مشكلة الملابس، والمطاعم والحانات اغنته عن الطبخ.

دخل المطبخ، وضع الدولة على المجلى ووقف في وسط الفسحة ذات البلاط الملون النظيف. سمع قرقعة قادمة من الحمام، فتعجب. دخل الى الحمام المعتم، وهو مرحاض في الوقت نفسه، وحدّق مليا في الجدران. السخان العتيق، والدوش المجعلك المائل الى اليسار، الرفوف الرخامية المسودّة من السخام، ثم خيوط العنكبوت وهي تعشش في الزوايا. الباب الخشبي المطلي باللون النحاسي. صعد بصره قليلا قليلا الى الستارة الكالحة التي لصقت منذ القدم الى مربع في الجدار. الصوت يأتي من هناك اذن. اقترب من الستارة العتيقة وأزاح طرفا منها، بعد ازالة اللاصق الأسود الذي تم فيه تثبيتها الى الجدار. ها هو المصدر اذن. ثمة شباك مربع يختفي وراء الستارة، ومن خلف الشباك تأتي اصوات طرطشة المياه، وقرقعة الأواني، والدندنة. لم يكن الجن اصحاب الصوت بل الجيران. جيرانه الذين لا يفصله عنهم سوى الحائط. الحمام معتم، وهذا ما جعله يميز النقاط الضوئية التي شعت في الجانب الآخر.

كان هناك طلاء ابيض على البلور، وضع ربما منذ سنوات، وقد تمزق في بقع ضئيلة فدخل منها النور. الجانب الآخر نوره مضاء، ولكن ماذا يكمن وراء الجدار؟ مطبخ، غرفة نوم، صالون جلوس، حمام، مرحاض، ام ممشى يقود الى السطح او الى الأسفل؟ وقف رؤوف، الذي لا ينقصه الفضول، وفكر لحظات فيما ينبغي استجلاؤه. حدس ان ثمة امرا يبحث

عنه هو الذي منع عنه موهبة التقمص. كان ذلك الشيء يكمن في الفتحات الصغيرة التي منحها الطلاء، وهناك وضع عينه المتلهفة، الخائفة. في البدء ابصر ثيابا معلقة ومغسلة وغسالة اوتوماتيكية مطفأة. لكن ثمة حركة في الداخل. وثمة طرطشة ماء. لابد ان يكون هذا حماما، قال لنفسه. لكن الثقب الصغير لا يكشف اكثر من تلك الأشياء. تراجع الى الوراء، وحدق بروية في الأمر، فاكتشف ثقبا طولانيا هذه المرة قرب حافة النافذة. وضع عينه هناك، فكانت له المفاجأة. رأى امرأة تستحم، جالسة على كرسي بلاستيكي واطئ. يا لله، ذلك مثل ما قرأ في الروايات. يتذكر واحدة من تلك الروايات بطلها يراقب غرفة مجاورة لغرفته في الفندق الذي يقطنه، ويرى من ثقب صغير كل ما يفعله القاطنون. كتم انفاسه وتراجع الى الوراء حين رفعت المرأة رأسها لتفرك الشامبو وترش على شعرها ماء من طست عريض بين رجليها. هل رأته؟ هل اكتشفت مكانه من خلال الحركة؟ هل سمعت انفاسه المتلاحقة؟ قلب المتلصص يرسل ذبذبات غير مرئية، تنبّه الآخرين وتكشف نياته. قرأ ذلك في احدى كتب التخاطر التي جلبها ليضيء عالم زوجته فاطمة ويفسر احلامها. هل شكّت بوجود لص خلف الستارة؟ كل تلك الاسئلة دارت في رأسه ذي الشعر الخفيف وهو يقف وسط الحمام، متسمعا ردة الفعل.

الحركة لم تتوقف والطرطشة مستمرة. لم تشعر به اذن، لكن الثقب لا يلقي نظرة جيدة على حمام الجيران. منذ تلك اللحظة اتخذ قراره. قال لهم بعد غيابه المتكرر انه اكتشف الثقب وعقد العزم على تقمص ذلك الثقب فوسعه ليكشف كامل الحمام. انجز عمله ليلا حين كان الظلام

مطبقا، وتم له وضع عينيه مكان الثقب. صار كلما يسمع حركة في الحمام يثب الى هناك، ليستجلي الأمر. رأى الزوج والبنت الصغيرة التي عمرها خمس عشرة سنة، والمراهق الذي كان يستمني كلما دخل الى الحمام، والطفل الصغير الذي تحممه امه. وسرعان ما صارت لديه لعبة ممتعة في البيت، حجبته عنهم اياما طويلة. لقد تحول الى بصاص يستمتع برؤية العالم السري من هذا الحمام طوال الصيف. اي قبل ان تتصل به ماغي المعاصرة وتخلخل ايقاع حياته. وفي ذلك الصيف رسم خارطة جيدة للعائلة اجمع، وأشادها رؤوف ببراعة. كل ذلك كان يجري وهم يسكرون في حانة بغداد او يسافرون الى جسر الهامة، او يصطادون الفتيات الصغيرات في نادي الصحفيين، أو ينتهون ليلا في مشرب الكرنك. جاء الصبار الى الشوارع ورحل. نادى باعة العرقسوس على مشروبهم في سوق الحميدية وشارع الحمرا وفي بوابة الصالحية ولم يشاهدوا رؤوف. مرت كثير من الأحداث على حياة الشلة لم يكن هو من شهودها.

تحول رؤوف الى ثقب، في نافذة حمام الجيران.

ركز على جسدين، جسد الأم وجسد البنت، لكنه كان يستمتع ايضا برؤية المراهق كيف يداعب نفسه، ويبعث فيه الضحك المكتوم مع نفسه، فهو يمتلك مسلوتا طويلا، وخمن انه بعد ان يبلغ العشرين سيكون بطلا في هذا المضمار، لا في مساكن برزة وحدها، انما سيمتد صيته حتى صحنايا وقدسيا وجرمانا. هكذا امور تشيع بسرعة بين النساء كما فكر في ذلك من قبل. ومن خلال تجربته هو ايضا. حدثته سامية عن صديقاتها وما يحببن في الرجال. احداهن تركت صاحبها لأن مسلوته

صغير مثل مسلوت الجرو، وأخرى هجرت حبيبها لانه ثخين وطويل وهي لا تحتمله، مع انها واسعة من الأسفل طويلة البطن. وثالثة تتمتع بالصغير الثخين وتبحث عنه بين الرجال. تلك احاديث نساء كان يلذ له سماعها من سامية.

هل كانت سامية مصدره الوحيد لتلك الأسرار ام ان فاطمة شاركتها ايضا، لكنه لا يذكر اسمها؟ والمفعوص، كما كان يسميه اغلب الأحيان، لم يبلغ السادسة عشرة ويصل مسلوته الى ركبته فكيف اذا تعدى العشرين؟ يضحك ضحكته الصبيانية وتشع عيناه ببريق الغلمة او السخرية او الشقاوة. لم يفسر احد الشأن على حقيقته لأن رؤوف غامض في هذا المجال، يصعب رصد رغباته الحقيقية او كيف ينظر الى هذه الأشياء من ناحية واضحة. يضع المفعوص الشامبو هناك، ويعمل رغوة هائلة من الصابون، ثم يدلك ذات اليمين وذات الشمال، مرة بيده ومرة على فخذه. رأسه يحدق بشيئه المنتصب كأنه جبل. لا يلبث سوى لحظات حتى يتفجر سائله الى الأرضية الاسمنتية. تكون عيناه اتسعتا مثل فوهتي بركان، وفمه يكاد يطلق صرخة مكتومة الى فضاء ناعس مغبش بالبخار والنظرات المصبوبة من ثقب النافذة. لا شيء يجلب المتعة في مراقبة هذا الصبي، اذ ان ثلاث مرات او أربعاً كانت كافية لتجاهله والتأفف من حضوره في الحمام. كذلك ابوه وأخوه الصغير. المتعة كانت في الأم، وهي من جذب انتباهه في البداية وراقبها حتى نهاية الصيف. لم يعجبه جسدها مطلقا، رغم انها اثارته بصدرها العارم، وكتفيها العريضين. لم يعجبه الجسد لسبب رئيسي كان يعتبره من مقاييس الجمال لدى المرأة، الا وهو المؤخرة. هي من مراكز الثقل في أي تقييم للجسد.

ينبغي ان تكون مكورة، فوق فخذ ممتلئ، وتتدلى من خصر ناحل، دون وجود بطن مترهلة. هذه المواصفات الجمالية لا تنطبق على تلك المرأة. اولا لأنها لا تمتلك خصرا، فجسدها مثل كيس البطاطا، وبطنها مترهل يصل الترهل حدا يغطي عانتها، كما ان مؤخرتها مسطحة وخالية من التكورات، لذلك فهي كلما ركعت يستطيع رؤية السواد الغامض الذي شكل واديا يصعب اكتشافه.

حين تجلس على الطاولة الخفيضة، أول ما تبدأ بما بين فخذيها، تسكب الماء ثم تضع الصابون وتغسل ثم تشم، عدة مرات. تنتقل الى الرأس والأطراف، وعلى جانبي الأذنين. تعيد وتكرر الغسل والفرك، وهي مغلقة الساقين والفخذين، حتى يدخل الملل الى روحه، فهو يرغب برؤية شيء جديد كل حمام. لكن وطوال مراقبته اكتشف ان هذا الروتين يتكرر دون تغيير، وعجب لامرأة لا تستمني او تنظف ما بين اليتيها، او تهتم بنظافة الابطين مثلا، او تزيل شعر عانتها، او تضاجع زوجها في الحمام. لكن لا، كل الجهد منصب على الشعر. وشعر المرأة مغر، ومثير، فهو كث ومتعرج، يضفي على وجهها العريض في الصباحات منظر امرأة داعرة. هذا عكس ابنتها تماما، البنت الناعمة التي لها مظهر صبي صغير بشاربين خفيفين ومؤخرة تشبه الكمثرى. وهي التي صرف عشرات الأيام لمراقبة وقت استحمامها. وهي من سرقته من جلساتهم عدة اشهر قبل ماغي المعاصرة، ماغي التلفون التي ولدت لديه خيبة عارمة.

تدخل البنت الى الحمام، بعد ان تجهز ملابسها النظيفة، وتبدأ بنزع بنطالها، اولا، ثم لباسها، ثم كنزتها او قميصها. تقف عارية امام المرآة. والمرآة ثبتت جنب الباب. تحدق بثدييها الصغيرين وتمرر اصابعها

عليهما. تنظر جانبيا اليهما كما لو كانت تستعجل امتلاءهما. تدندن بالحان لم يميزها، لمغنيات لبنانيات ظهرن مؤخرا. بعدها تأخذ بالتمايل قليلا برقصة مرتجلة. كل ذلك قبل جلوسها على كرسي الغسيل. أدغالها خفيفة، ومؤخرتها صغيرة لم تكتمل بعد. صدرها يثير شهيته، يسيّل لعابه، ويتواصل انتعاضه ويتردد لهاثه متسارعا على الطلاء وبقايا العناكب وبيوض الصراصير الشبيهة بحب القهوة الملتصقة على الجدران.

منظر المياه المشبعة بالفقاعات، والرغوة وهي تتسايل على الثديين النافرين، متعة لا تحد. بكورة الأشياء وهي تنمو بزخم بري، ورائحة الأنثى التي تنضج بخفة. الماء يسقط على البطن الناعمة الرشيقة، ومن هناك الى الشعيرات السود، والمسطح الداكن بين عمودين أسمرين، فخذيها المفتوحين على شراهة الفحولة وسط هذا العالم. دراكولا. كثيرا ما شبه نفسه بدراكولا. يجدد شبابه بمص الدماء الحارة الطازجة من الفتيات الصغيرات. وحدهن من يعيد الشباب الى الشرايين المتيبسة والبشرات المتجعدة والرخاوة التي سببها الزمن للأعضاء. بعرقهن الحاد الرائحة، وكثافة غاباتهن السفلية، ورحيق أفواههن الحلو، ودماء طمثهن ذي الرائحة النفاذة الذي يذكر برائحة الحياة الأولى والحمأ المسنون.

استنزف روحه تماما في ذلك الحمام الصغير.

لم يرغب بتقمص ما يراه أمامه لأن هذه الأشياء تستوجب الملامسة والفعل لا التقمص السلبي. هذا ما أصر عليه مع نفسه وأكّده لهم مرارا. وكان الصيف يسرع على شجرة الفلفل البري فيعرّي أوراقها ويزيل خضرتها، ويمحق الزنابير والذباب والبق من هياكلها.

النسيم صار يبرد ليلة بعد أخرى.

الشمس مالت عن السمت، والغيوم، راحت تسربل الأفق فوق قاسيون، كل مساء، كل مساء.

* * *

صباحا حاول التسلي بالنظر الى حمام الجيران، فوجدهم قد سافروا الى مكان مجهول. لم يتصل به أحد من الشلّة، فهم ملّوا على ما يبدو من ثرثراته التي لا تنتهي عن قاع هذه المدينة. أحس بتغيرهم نحوه، كما لو ان الموت بدأ يدب بأوصاله. حتى زكي السكير راح ينصحه بتقليل المشروب، بل ويتهرب من مرافقته الى حانة بغداد. كان يدرك ان حديثه اصبح مكرورا، علق بذلك الماضي مثل ذبابة في نسيج عنكبوت. حكايات ماغي حفظوها عن ظهر قلب، وقصصه اصبحت على كل شفة ولسان. بعضهم اقتنى كتاب البديري الحلاق ليطّلع على صدق ما جاء به ابو الفهم. قال له خليل مساء البارحة مالك يارؤوف تبدو شاحبا، هل هذا حال من تموت زوجته ويعيش وحيدا؟ واحتار كيف يرد عليه، وخاف على روحه ان يصير مثل زكي، عاشق أموات في مقبرة الدحداح. هام وحيدا في شوارع هذه المدينة العاتية، المليئة برائحة الياسمين، والنساء الدعجاوات العيون، فقال لنفسه اليوم سأسكر حتى الثمالة، سأرقص على دف وعود وبزق، من شارع العابد مرورا بشارع شيكاغو الذي هجرته الأنغام، وماغي الشاحبة، مثل شبح في التاريخ. سأتذكر قصص البديري حلاق دمشق عن الشلكّات والخطايا والعاهرات، وسأنتهي بساحة المرجة، كأي غريب، حديث العهد بهذه المدينة. وكان نهر بردى

شاحبا هو الآخر، كأنه ملّ وجوده في هذه المدينة التي غيرت جلدها في اقل من عشرين سنة، من الأفق البعيد يتحدر مثل شيخ عجوز. يتحدر من الربوة نحو الغوطة. رآه خيطا من الحكايات والأموات والغزوات والألوان والقصص والغصون المتقصفة من جبل الشيخ وخان الشيح والمزة وجبال لبنان المزنّرة بالسرو والأرز المعمر. جرى وصفق يلقانا بها بردى/ كما تلقاك دون الخلد رضوان. هذا البيت لشاعر النيل احمد شوقي، يلوح في ذاكرته وينساب كلما ذكرت دمشق ونهرها الخالد. هل كانت ماغي ترده في ليالي الغناء، أم ابو الفهم؟ بردى أينما تجول المرء يرافقه مثل صديق رؤوم. كم مرت من السنوات على مرافقته لفاطمة الى المتحف؟ السنوات تختلط، ويزحم بعضها بعضا. يمشي الانسان فاذا جزء من بردى أمامه، وكأنه نهر تشظى الى نهيرات. رأى كل تلك الأصقاع آلاف المرات، وكل واحدة منها لها في نفسه قصة وموّال. الحمامات تذكّره بالمساجين والوقادين والصبيان، اصحاب الرغبات المكبوتة. الجوامع توحي بالطبول والدفوف وأغنيات الموالد النبوية، من جامع قلبقا الى الجامع الأموي الى جامع ابيه الروحي وحبيبه، الشيخ محي الدين.

الوحدة في سنه لها جمالياتها، حيث يمضي في بعض الأيام بين الحواري والأزقة والساحات، يتأمل في الواجهات والشبابيك، وينصت الى حوارات البشر، ويجلس احيانا في مقهى بساحة المرجة. يشرب الشاي ويتطلع الى الجالسين. باعة المسابح والمحابس والساعات والقداحات الفاخرة، هذا يبيع لذاك، يربحون قليلا من الليرات كي يواصلوا عيشهم. قبل عشرات السنين كان بردى مدار حديث الناس، صيفا وشتاء، أحواله وأمواجه وهيجاناته وجفافه، اما اليوم فقد صار

جثة مهملة تنتظر الدفن. غاب عن الأذهان، وتوارى بين ضفتين عجفاوين تنزان العطن والروائح الفاسدة. كان ذلك من زمان: بردى يعلو في بداية الربيع وترتفع أمواجه لتعلن عن سنة خير يعد بها الزمان الحقول المحيطة بالشام. انه صبي اهوج في السنين الماطرة وعجوز كهل في المواسم الشحيحة. وهو بنزواته تلك واحد من تجليات المدينة وأهوائها. المدينة المتجملة بتناقضاتها الساحرة. النهر الذي تقمصه مرات عديدة، وسار مع فاطمة على ضفافه.

سوف يقترح قريبا على الشلة المضي الى منابع النهر، لقضاء نهار في البساتين، وشي اللحم واحتساء الريان، وغناء الدلعونة. يمضون بقطار الزبداني ويعودون بسرفيس. سيارة ابراهيم السمكري لا تنفع، وربما تأتي سامية. لايهم ان جاء زوجها الديوث معها. من يعبأ به. عين الفيجة، عين الخضرا، كم شهدتا اهواء وغزلا بينه وبين فاطمة!!! بردى كم يحفظ من الحكايات مثله! كم شهد راقصين وحواة وصعاليك ونساء وساسة ومشعوذين وباعة جوّالين!! وهنا ترفرف في ذاكرته الأغنية الشهيرة: ياطيرة طيري ياحمامة ودّيني لدمر والهامة. هجرت دمر زينتها من البساتين والمقاصف، ايام شارع شيكاغو وارتدت حلة من العمارات الاسمنتية ولعلعت في فضائها اصوات مغني الغرب، مثل مايكل جاكسون وجون لينون وشاكيرا. ثم جسر الهامة، الذي شهد سهراتهم الصاخبة، هناك حيث بال اكرم ليسقي اشجار الحور، وحيث صار هو حبحبة وطار بين ذؤابات الحور، وكانوا يطلّون على واد من شجر الصفصاف والحور والدلب. كانت اشجاره تتحول شتاء الى قضبان من الفضة، تتمايل مع نسمات شتائية باردة.

ليس أمامه الا ان يحمل هذه المدينة الى قبره.

لم يعد يستطع تحمل ثقل حكاياتها وفضائحها وموبقاتها التي شهدها طوال هذه السنين من حياته.

لم يعد يحتمل عشقها وهجرها وبضائعها وصنائعها.

اكتفى. رؤوف وحيد الدين الأرمل، لقد اكتفى من حياة هذه الصبية العجوز، الجميلة القبيحة، الرقيقة القاسية، المسماة دمشق. اورثها له صحابه القدامى، ابو الفهم والمطعم النقال وسعدو القبضاي والبديري الحلاق وماغي وفاطمة ونسيم بيك والتنين وزكي والسمكري والشاعرة الرقّاصة والقاصة العضّاضة. الرسام الملتح وبائع المسابح ومساكن برزة وقارئات الكف في قاسيون وحباحب جسر الهامة وخليل وناصر. آلاف الشخوص والسحنات والأشياء. اورثوها له، رؤوف وحيد الدين الذي يعاني من تشمع الكبد والوحدة والتقمص لكل ما يحيط به. اصبحت ثقيلة على كتفيه. اثقل من بلاطات الجامع الأموي وأعمدة جسر الهامة وصخور تدمر.

ليلة البارحة رأى فاطمة في منامه ايضا. كان النهر مثل نهر بردى، لكنه بدا في الحلم شاسعا، ضفته الأخرى بالكاد تبصر. كان يقف قرب بناية طينية تقع على النهر. وعند الشاطئ كان ثمة صفيحة واسعة من الحديد الصدئ. تمتد من اليابسة وتغوص قليلا في الماء. حولها البشر القاطنون على الضفاف الى مرفأ صغير تجلس عليه النسوة لغسل الملابس او لغرف المياه من النهر بأوعية من الحديد.

رأى فاطمة واقفة على المرفأ وتحدق في الضفة الأخرى. كانت شابة، ليست كما عرفها قبل ان تموت. ثوبها مبتل، يكشف عن عجيزتها

المكورة والصلبة. تلك العجيزة التي لاينام الا وهي ملتصقة به. ثوب من الكتان الخفيف مقلم بالأحمر والأسود. كشف فخذيها وبياضهما، وتلك المنطقة الواصلة بين الردفين والفخذين. تلك المنطقة التي طالما اثارت شهيته. وهي تعرف ذلك. انتعظ ونظر اليها بشبق، لكن وكعادة الأحلام، تهم بالتقدم الى الأمام لكنك لا تصل. هم بالوصول اليها، ومعانقتها من الخلف، لكن لدهشته بدأت بالتحرك داخل الماء. خاف عليها فحاول تنبيهها ان لا تغامر بعيدا. المياه عميقة والتيار جارف. لم يخرج الصوت من فمه، وامتلأ رعبا. فاطمة ستغرق، وهو منتعظ، والشمس تصلي الموجودات بلهيب حارق. يصيح فلا يخرج الصوت، وسرعان ما اختفت فاطمة من أمامه. ابتلعها الموج. أكلتها الكواسج النهرية. غيبتها جنيّة الماء في كهوفها العميقة. ذكّرها بمتحف دمشق وسوق الحميدية ومرقد الشيخ محي الدين وابنهما الذي تزوج اميركية واستقر هناك، لكنها لم تلتفت. ودّعت الحياة ومضت الى مقامها الأبدي. كأنه لم يفسر لها أحلامها، وكأنه لم يرضع صدرها البض المرمري، مثل طفل، وكأنه لم تمسح بأناملها الرقيقة قبته ولعابه. فاطمة المزرعة، وفاطمة المتحف، وفاطمة الجمال الذي حل لعنة في قلبه. فاطمة ماغي شارع شيكاغو، وساحة المرجة، وسوق التبن، وسوق الخيل، وسوق المناخلية، وشموع مرقد صلاح الدين التي اوقداها سوية في ليلة ممطرة.

لماذا تختفي فاطمة من احلامه فجأة؟

هل الموت مسافة لا نهائية بين الأحياء والأموات؟

الموت هذا الهاجس المرعب الذي تلبّسه منذ غياب فاطمة.

* * *

الياسمينة اعلى الدرج، لم تعد بحاجة الى مياه كثيرة. المنظر في حمام الجيران صار يتضبب بالبخار. الليل يحتاج الى بطانية سميكة على جسده. لم يعد فيه توق الى قيلولة الظهيرة. صار الليل يهبط بسرعة من التلال البعيدة والغابات المحيطة بالمدينة. الضوء الشفيف، ضوء ما قبل المغيب، يشبع الروح سكرا ويدعو الى العشق والحب ومعانقة الصبايا. العواصف الماطرة والنهارات الغائمة المرعدة بالمطر، لم تأت الا في كانون الأول، الشهر الذي ابتدأت فيه حكاية ماغي. ماغي هذا العصر المليء بالصعاليك والسواح والقصائد المطولة وبراغيث الكراجات. كان يوما عاصفا، باردا، لم يخرج فيه من سريره. هذا رغم ان الساعة تجاوزت العاشرة صباحا. ورغم انه سمع طقطقة في حمام الجيران، وأصواتا وعلامات تدل على الأجساد العارية، غير انه ملّ من كل ذلك ولبث في السرير، يقرأ مقالا في جريدة الحياة عن الحياة في الكواكب البعيدة للمحرر العلمي الذي استقاه من وكالة ناسا الأميركية. في زئير العاصفة دق التلفون. اختلط صوته بزئير الهواء في الشباك وأغصان الشجر الأجرد.

قال توقعته واحدا من الشلة يدعوني الى وليمة في قصر البلور، او أواديس، الا انني لم اكن صائبا في حدسي.

كان صوتا انثويا، طلبت المرأة الحديث مع خالد اللحام. من هو خالد اللحام؟ تساءل فأجابته المرأة، اليس هذه مساكن برزة؟ قال لها بلى، لكن هذا ليس بيت خالد اللحام، فاعتذرت وسكرت الخط، وعاد الى مقالته بشغف. مضت عشر دقائق ثم رن التلفون ثانية. استعاذ من الشيطان الرجيم، ومن معاكسة الغرباء والمتطفلين، في هذه المدينة

الجاهلة التي لم تجد سوى التلفون منفذا لتفريغ رغباتها ونذالاتها وقهرها. وكان المتكلم الصوت ذاته. المرأة التي تبحث عن عائلة ما ضائعة وسط هذه العاصفة في مساكن برزة. النبرة عينها، والطلب ذاته، فكرر رده وقال لها يا اختي ان الرقم الذي تطلبينه غير دقيق. وضعت المرأة كل الحق على العاصفة وعلى اشتباك الخطوط الذي كثيرا ما يحدث في هذه المدينة.

ثمة لعبة وراء الأمر. ليس صدفة أن يتكرر الغلط مرتين.

لا يمكن ان يؤدي اشتباك الخطوط الى طلب نمرته مرتين.

ربما، كل شيء جائز. أخذ يتقمص يد شخص بعيد، في مكان ما بين جدران أربعة. راحت اليد تدير الأرقام ذاتها، أرقام هاتفه. تقمص الأسلاك التي حملت الرقم، وكيف سارت عبر الهواء والشوارع والأزقة لتستدير الى حارته المغلقة، وشجراتها العجفاء، مستهدفة تلفونا بعينه هو تلفونه، فاذا بالصوت ينطلق في أذنيه مثل قدر محتوم. صدق تقمصه وكانت المرأة اياها. اقتنع كلية أن في القضية لعبة، وأنه هو المستهدف في هذا اليوم العاصف.

- هل هذا بيت خالد اللحام؟

من الدهشة والمفاجأة لم يرد. ظل يفكر بخوف وعقدت الدهشة لسانه.

- من أنت؟ الست من طلب الرقم مرتين قبل قليل؟

- أجل.

ادرك ان المرأة تتصل بغرض الوصال. وفي البداية راح يخمن الصوت، وهل هو صوت يعرفه، سمعه سابقا في مكان ما؟ جعل يضع

نساء عرفهن في ميزان بصيرته لكي يطابق ما بين الصورة والصوت. وهو اثناء ذلك يتكلم للمرأة عن عواصف الخريف، وثلوج الشتاء، وضرورة ايجاد وليف في ليالي الشتاء الطويلة الباردة. تقمص اولا شكل سامية، علّه يراها ويتعرف عليها. الشعر الخرنوبي، العينان الحادتان، الوجه المستطيل، والشفتان المكتنزتان، هي ام لا. لا لا لا يمكن ان تكون هي، ربما تغير صوتها قليلا. سامية رآها قبل يومين وقد كسرت ذراعها. حاول ان يوحي لها بالحادث ليستشف ان كانت يدها مكسورة ام لا، فلم يوفق. تقمص ذلك اليوم بدقة، اذ حدث ان كانوا في صالة الشعب، رفيقهم الفنان صابر افتتح معرضا للرسم على الخيش، وهي طريقة جديدة في رسم اللوحات. جاءت سامية مجبسة اليد، بوجهها الناعم المشوب بالرومانسية، وقد بادر، وكان شرب في بيت صابر الكائن في المزرعة لترا من النبيذ الأحمر الذي يحبه، خاصة على الغداء، وكان منتشيا وواتته الفكرة. امسك بالقلم وكتب حرفين فقط: س. ح، على جبيرة سامية، وهو يبتسم بشجاعة، فما كان من الآخرين الا التزاحم على يد سامية. بعضهم كتب مقطعا شعريا وآخر حكمة والبعض اكتفى بالتوقيع على اليد. لم ينته المعرض الا ويد سامية اشبه بكتاب ضخم، لعبر وحكم وشعر وتواقيع، لكثير من مشاهير دمشق وصعاليكها، وعلى رأس القائمة رؤوف.

عيناك حمامتان، كتب واحد منهم. سامية لن ننساك. انا افكر اذن فانا موجود. ياطيره طيري ياحمامة. بنتم وبنا وما ابتلت جوانحنا. كل من عليها فان. ميادة تكتب الشعر، وخولة ترقص. تصبحون على وطن، وغير ذلك من هذيانات وقصائد ومقاطع نثرية، بعضها لا يوحي بشيء.

ذكّر المرأة في اليوم الثاني بحادثة الجبيرة خاصة وان صوتها كان يشبه صوت سامية، ناعما، كسولا، مواربا، فيه غنج ودلال. ليست سامية. من تكون اذن؟ طوال اسبوع وهي تتصل به، صباحا وبعد الظهيرة، وفي الليل، حتى ظن انها جارة من جاراته. فكر بجارته صاحبة الحمام، لكن هذه صوتها يختلف، سمعها اكثر من مرة تتحدث مع زوجها او اولادها. هذه صوتها ثخين قليلا. ربما الجارة التي تقطن في البيت المقابل، التي تفيق وصوتها يسبقها بالصياح والعويل على الجميع. امرأة تتكلم من فرجها، وصفتها سامية حين سمعتها تعول. استبعد ان تكون من نساء الحارة. طلب منها رقم تلفونها فرفضت. قالت له ان لا يستعجل، فيوما ما ستكشف له عن شخصيتها. متى، سألها بلهفة، فلم تعطه جوابا قاطعا. كل ذلك ورؤوف يخمن، ويهجس ويتقمص الأصوات والنساء والأشياء، للوصول الى كشف هذا السر. اقتنع ان المرأة تعرفه، او على الأقل تعرف شخصا يعرفه، ومنه حصلت على رقم التلفون. فكر بخليل، بمحمود، بأسعد، بصابر، بزكي، بشلة جسر الهامة وحانة بغداد وفتيات نادي الصحفيين وقصر البلور. لم يوفق بالوصول الى شيء ذي قيمة. انها ومن خلال الحوارات المفتوحة التي دارت بينهما في التلفون، تهتم بأشياء كثيرة منها الرسم، والتحليل النفسي، والعلاجات الروحية التي لها علاقة بالباراسايكولوجيا.

علم التخاطر عن بعد لها فيه باع طويل. وكل هذه المواضيع مرت على رؤوف آلاف المرات، من خلال قراءاته وجلساته مع نخبة العالم السفلي كما يسميها، ودورته التعليمية التي دخلها مع الكتب الباطنية لتفسير احلام فاطمة. اضافة الى تأملاته الداخلية وهو يقوم بدراسة

الأحداث التي تمر به بعد يوم او ايام من حصولها، او من خلال تقمص الحالات التي رآها وعاشها عبر الأصوات والنظرات والاشارات والاختلاجات التي تحصل في الوجوه والحركات. ذات مرة على سبيل المثال، دخل هو وسامية الى معرض الفن التشكيلي في صالة السيد، وما ان تقدمته سامية خطوتين حتى رآها وقد تلبثت برهة، وتلبكت كما يقال. كانت ثانية خاطفة، وهو لم يدرك حينها السبب. بعد يوم من ذلك اعاد الشريط ثانية، ببطء، خاصة بعد ان استعرض الأشخاص الذين كانوا هناك، فلاحظ ان ثمة شخصا بعينه هو الذي سبب الارتباك. كان شخصا له علاقة كما قال الصعاليك، مع سامية، وهو يكتب الشعر العمودي، الغزلي منه، تحديدا. ورؤوف كما هو معروف عنه مشهور بالشكوكية والاستنتاج والربط بين مشهدين والحدس، والتخاطر، والتقمص، وهي عدّته في تكوين رؤيته نحو الحياة، وفي تكوين روابطه حتى مع الأصدقاء.

صار يختصر من جلساته معهم. يظل اغلب الأحيان في البيت، اما متلصصا على الحمام، او منتظرا اتصال المرأة الغامضة، كما سمّاها مع نفسه.

ماغي المعاصرة عاشقة الباراسايكولوجيا وعلوم التنجيم والحياة ما بعد الموت.

رأسه خلية نحل، تختلط فيه الحكايات والقصص والأحداث. شارع شبكاغو، صديقه اللوطي الباحث عن الوحدانية، ماغي، جسر الهامة، محلات الصابون التي امتلكها والده ذات يوم وبعثرها رؤوف على ملذاته. ذكرياته البعيدة عن اسرته التي هاجرت منذ قرن من البلد

البعيد، وذلك التاريخ الجديد، الذي ملأ به رأسه، تاريخ هذه المدينة. اصبح التلصص قصيرا، بسبب البخار الذي صار يتصاعد من المياه الساخنة فيحجب عنه الجسد الأبيض، سواء للبنت او للأم. لكل هذا صارت متعته تقتصرعلى الدقائق الأولى قبل ان تتغطى الاشياء بالبياض على الجانب المقابل من الجدار. عاد يقرأ كل ليلة تقريبا من مخطوطة الحلاق البديري، حلاق الشام في زمان الوالي اسعد باشا العظم. كان يركنها على الطاولة، جنب التلفون. كل سطر دهشة، كل جملة حكمة: في نهار الاثنين، زادت المياه بسبب سيل عظيم، ودخلت الشام عند انتصاف الليل. فحصل طوفان لم يسمع له نظير من قديم الزمان. هجم الماء وأغرق جميع ما كان في طريقه من الدكاكين، وأتلف أموالا كثيرة لا تعد ولا تحصى حتى صارت المرجة كالبحر. وكان له خرير ودوي وهدير. وغطت الزيادة حجر تاريخ القلعة، ومرت في الأسواق والدور وأخرجت شيئا غير محصور، وقد صارت تحت القلعة وفي المناخ بارتفاع طول قامة الانسان. هكذا كان ابو الفهم يقرأ ايضا، ويختلس الآخرون النظر الى وسائل الموت، الموزعة قرب البلور وجنب الأعمدة وبين الطاولات بشهوة واضحة. البلطجية الذين لا يعرف الانسان متى يثورون ويحولون الوردة الزرقاء الى ركام من الكراسي والزجاجات والنقل والأشلاء.

يقرأ أبو الفهم: قال المؤرخ البديري الحلاق: وقد دخلت الى القهوة المناخلية بعد انصراف الماء فوجدت أن الماء أعلى مساطبها بمقدار ذراع. وقد شاب من هول ذلك اليوم الكبير والصغير. وقد غرق بها أناس غير محصورين، ومع ما أتلف من البهائم والأموال وقد أضرّت بجميع ما

مرت عليه وانهدمت أماكن كثيرة لا تحصى وتركتها بلاقع. ومن غرائب شارع شيكاغو، ان شاربيه، وحين يلعلع الرصاص وتتقاتل السكاكين وتتطاير القناني المكسورة، لا ينهضون من كراسيهم، بل ولا يخفضون رؤوسهم. يصبحون نقاط جذب لتلك الأشياء الطائرة، الحامية والباردة، دون تردد او خوف. فرصاصة صغيرة تمر برأس متعب لابد ان تختصر رحلة العذاب اياما. تختصر الطريق المؤدي الى القبر في مقبرة الباب الصغير او الشيخ محي الدين او مقبرة باب توما، او مقبرة جبل قاسيون، او الدحداح. والدحداح كما تعرفون، كثيرا ما تذكّر زكي بصديقته التي ماتت منذ خمسين سنة، لقد وضع باقات لاتحصى على قبرها الذي تآكل رخامه، وكان يهزأ بصديقه الرسام، ناصر، الذي يصل بعده دائما. وكان يهجس بخيانة الحبيبة، فيكرع العرق من فم القنينة ويبكي على شرفه المهدور. تلك هي مقبرة الدحداح التي لوثتموها بهذياناتكم وسكركم وعربدتكم، لكن كل ذلك وارد ومرغوب فيه. وتظل الأعمار بيد الله. فالموت وجه من وجوه الحياة، رغم ان الموت لا يعدو ان يكون تحولا من شكل الى آخر في هذه السلسلة المتلاحقة من الوجود الانساني. يحب البشر، يتناكحون، يتوالدون، يعيشون، ثم يموتون، وتغتذي منهم كائنات اقل صغرا، تتوالد هي الأخرى وتخلّف وتموت ثم تتفتت وتلتهما كائنات نباتية او حيوانية تصير طعاما للكائنات الأكبر، ومن ضمنها البشر وهكذا. سلسلة عجيبة، كان يدركها ناصر النعسان بلا شك، حين يجلس على قبر حبيبته فيكلمها ويلقي لها قصائد من الشعر الحديث لا تفهم منها اي شيء، لأنه هو ذاته لا يفهم منها شيئا، فقد كتبها في درجة من السكر لا يميز فيها بين الألف والفيل، او بين

البيضة وملعقة الحليب. تجري المشاجرات والمنازعات، الكبيرة منها خاصة، وسط الشارع. بعيدا عن الخمارات والبارات والعلب الليلية، تفاديا للتخريب غير المجدي للجميع. وكثيرا ما يهرع زبائن سينما الأهرام، وهي قريبة من الشارع، الى مكان المعركة. فهم على موعد، مثل كل مرة، مع فيلم حي من افلام الكابوي. فرجة بلاش، خاصة وذلك الوقت محدود بمتعه. فرج وكتاب وكأس.

متعة التجلي والعرفان للنخبة كما تعرفون. وتلعب البارميد ماغي، دورا رئيسيا في تأجيج المعركة. وحين يرى المرء آثار الدماء على الأرض تقفز الى الذهن فورا صورة الصراع الدامي لذكور طائر الفيزون على انثاها. اين انتم اليوم من تلك الأيام، كانت الحياة أصغر وأبسط، والوجود أضيق لا يسحق الانسان بعجائبه. كانت موهبة التقمص لديّ في اولها، تأتي على شكل تأملات قصيرة حول الموت والحياة والبشر والطير، حول البحر والنهر والصحرا ء، وحول ذلك الكمين في صدر الشخص الذي يفجر فيه الغضب والشجاعة والحب والعشق والنبل والنذالة. أول مرة انغمرت فيها برياضتي الذهنية، حين دخلت كتاب البديري الحلاق. انسان يتقمص كتابا!! تهت في دروبه، في كلماته، في كوارثه، وكان ضوء المصابيح حوّل التنين الى ديناصور، وأبو الفهم الى ضبع كاسر، وأبو واكيم الى اله فينيقي يشبه حفيدا من احفاد زنوبيا.

تخيلتني الحاوي الذي قدم من بلاد الشمال ورقّص الأواني على عصاه. وتخيلتني بردى فاض على حارة الصالحية. وتخيلتني عود سيسبان في يد درويش يدخل الجامع الأموي كي يؤدي صلاة التراويح. لقد شهدت خمارة الوردة الزرقا ء أول تقمصاتي، التي لم تفارقني الى

اليوم، ولن تفارقني حتى ادفن جوار الشيخ محي الدين بن عربي. انتظرت فاطمة ما يكفي، ولابد لي من اللحاق بها. آخ لو عرفت ذلك السائق ابن الكلب الذي هرب. كان عصرا جميلا ورغم ذلك ماتت فيه فاطمة. دفعني الحادث المروع الى أن اغيب عن الوعي. لم أحتمل صدمة الفراق الأبدي عنها. أتذكر المشهد جيدا وكيف تحول الناس المتجمهرين الى ديدان ضخمة تتطلع في وجهي. أحسست وكأنهم شاركوا في قتلها. حتى انه لم يتوقف ذلك السائق الكلب.

* * *

في شارع شيكاغو لم يكن الحصول على الموت أمرا بسيطا. مع ان الأيام تمر رتيبة على البعض ممن ارتدوا علامات الرحيل النهائي. صفرة الوجه، وثقل الحركة، وتهدل الكتفين، وارتخاء الحنكين. يبدأ اصدقاء الشخص المغيز بتناول سيرته ما ان يغيب يوما او يتأخر ساعة عن موعده المعتاد. فمن يغب أياما تضمحل صورته في الذاكرة المتعبة. يتحول الى جزء متواضع من أحاديث الموائد. لم تكن عادة الحديث عن الغائبين شائعة. لا احد يعرف عن العائلة او عنوان السكن شيئا. الجميع، صعاليك فقط. من اين جاءوا والى اين يمضون، ذلك في ضمير الغيب. ستتذكرهم ارصفة شارع بغداد وساحة المرجة وصبّار الربوة وضفادع قصر البلور ونساء الميدان المحجبات، اللواتي يهجسن من خلف الحجاب بالعرسان، وكل الليالي الغائمة والصاحية والنجوم البعيدة التي شهدت جنون خمرهم وتأوهات هذياناتهم في لحظات البوح والتجلي والمشاعر. تصبح حينذاك حياة الأيام السالفة هي الأهم. فالسكارى يحبون العيش في الماضي. وكان أبو واكيم يحرّض ابو الفهم على لعب ذلك الدور. دور

الساحر الذي يمتلك آلة الزمن العجيبة في السفر الى الماضي. وأكثر ما كان يخلب الزبائن أيام الوالي اسعد باشا العظم. عندما يكون الحاضر مشبعا بالموت واليأس والسواد، تصبح كل حادثة مهما كانت تافهة، ساحرة ومكتظة بالدلالات. قصر الباشا المنيف في دمشق القديمة يتذكرونه بكل أبهة واجلال. لكن كيف بنى الوالي قصره الفخم ذا البحرات والليوانات والأعمدة والأودات والحمامات المزججة، والمرمر اللاصف؟ هذا ما يقصه عليهم ابو الفهم من تلك المخطوطة بلذة وجبروت وشوق: وفي تلك الأيام أخذ أسعد باشا دار معاوية وأخذ ما حولها من الخانات والدور والدكاكين وهدمها. وشرع في عمارة داره، السرايا المشهورة التي هي قبلي الجامع الأموي. جد واجتهد في عمارتها ليلا ونهارا، وقطع لها من جملة الخشب الف خشبة، وذلك ما عدا الذي أرسله له أكابر البلد والأعيان من الأخشاب وغيرها. ورسم على حمامات البلد ان لايباع قصرمل لأحد، بل يرسل لعمارة السرايا. واشتغلت بها غالب معلمي البلدة ونجاريها، وكذلك الدهانين، بل قلّ ان يوجد معلم متقن او نجار أو دهان كذلك الا والجميع مشتغلون بها، وجلب لها البلاط من غالب بيوت المدينة. اينما وجد بلاط او رخام وغير ذلك، مثل عواميد وفساقي يرسل فيقلعهما ويعطي القليل من ثمنهم. وكان في قرب تربة البرامكة قصر يقال له الزهرابية، قيل هو من عمارة الملك الظاهر وهوعلى ظهر بانياس مطل على المرجة، وكان مكان منتزه عظيم تهدم غالبه. وفي قربه مدفن وعليه قبة من حجر ورأس القبة مقلوع، وفيه وهدة قيل انه كان في رأسها خبية قديما وأخذت. وسبب أخذها أنه كان مكتوبا على باب جدار القبة هذا المواليا: داري زمانك وصحبك ثم داريها/ وتجنب

الناس عاليها وواطيها. وان سألوك عن عيوب الناس غطّيها/ العقل في الراس قاضيها ووالـيها. وكان كل من يقرأ يتخيل شيئا، الى أن جاء صاحب النصيب ليلا وصعد الى أعلى القبة وحفرها وأخذ ما فيها، ولم تزل بلا رأس الى زمننا هذا. الى ان أخبروا حضرة الوزير اسعد باشا العظم صاحب العمارة عن هذه القبة وعن المدفن الذي بجانبها، وان الأراذل الأشقياء يجتمعون عندها هناك ليلا ونهارا على فسق وفساد وغير ذلك، فأمر بهدمها حالا ونقل حجارتها الى داره. وفي يوم الخميس عمل حسن افندي السفرجلاني وليمة لحضرة اسعد باشا والي الشام بالصالحية في قاعة ابن قرنق. وكانت ضيافة عظيمة، قيل تكلف عليه نحو احدى عشر مئة غرش. فنظر حضرة الباشا الى سروات شاهقات في داره، فطلب من صاحبهم علي أغا بن قرنق قطعهم لأجل عمارة داره، وعرض أسعد باشا صاحب العمارة عليه شيئا من المال، فأبى ان يأخذ من ثمنهم شيئا، وقطع له ثلاث سروات ليس لهم نظير في الشام ولا في غيرها. ونقل من قرية بصرى أحجارا وأعمدة من رخام شيئا كثيرا وأخذ من مدرسة الملك الناصر التي في الصالحية أعمدة غلاظا جيء بهم محملين على عربات تجر بالبقر هدم سوق الزنوظية الذي فوق حارة العمارة، وكان كله اقبية معقودة فأمر بفكه ونقله الى داره. ونقل ايضا اعمدة من جامع يلبغا، وانه مهما سمع ببلاط بديع أو أعمدة أو أحجار من أي محل كان يأتي بها شراء وغير شراء. كان يقول لأتباعه ائتوني بحجارة المرمر والرخام والسرو، وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة. وجلب عواميد الرخام على العجلات والبقر من بصرى، وخرب سوق مسجد الاقصاب، واستجلب جميع ما فيه من أحجار وأخشاب،

وكل ما سمع بقطعة او تحفة من رخام او قيشاني او غيرها يرسل فيأتى بها ان رضي صاحبها او أبى. واذا أراد الفقير ان يعمر او يرمم لم يجد معماريا ولا نجارا ولا خشبا ولا مسمارا ولا ترابا ولا قصر مل ولا احجار، وهذا مع غلاء الأسعار وحلول الأكدار.

وحدث في احدى الليالي الدمشقية من زمن اولئك الصعاليك الرواد، قبل ان تأتوا وتكتبوا قصيدة النثر والأباريق المهشمة وتعيشوا على بقايا النبل القديم، وتسرقوا الأحذية من جامع الشيخ محي الدين بن عربي وتكتبوا قصائد غزل على جبيرة سامية، حدث ان كانت ليلة ماطرة، المزاريب فيها تضخ المياه من الأسطح القريبة، وسيلانات الشوارع تتدافع نحو الأماكن الواطئة.

خرج المكنّى انت التاني لجلب علبة سجائر للمطعم المتنقل. والمطعم المتنقل يدخن السجائر مثل مدخنة حمام القرماني. سيجارة من مؤخرة سيجارة. لم يسأل أحد عنه. كان فاقد التوازن من السكر. وبعد فترة سمع الحضور صرخة مدوية، ولازمة تتكرر في صفاء الظلمة وهزيم الرعد وتواتر المطر: رح يصفى دمي ياجماعة!!! كرر هذه الصرخة مرات ومرات. توقف ابو الفهم عن قراءة المخطوطة ونظر ابو واكيم الى الباب. خرج التنين ووجد انت التاني واقفا جنب الشباك، مستندا الى الحائط، ماسكا مسلوته بيده. وجده يتبول. عرف منه انه بقي هكذا ربع ساعة دون توقف، وهذا ما جلب له الرعب. ماؤه لم ينقطع. سيتبول روحه ويموت. نظر اليه التنين، ثم رفع بصره الى الأعلى وشاهد عمود الماء الساقط من المزراب. فما كان منه الا أن جرّه من يده وهو يصيح: فوت العين تطرقك، الموت بدو هز كتاف، بدو رجل، لا صعلوك مفيز. عرف الرجل ان السائل

الذي لم ينقطع من عضو السكران هو المطر النازل من المزراب الذي وقف تحته. اطلع الجميع على الحكاية فغصوا بضحك متواصل اكثر من ساعة، وبمناسبة تلك القفشة الهائلة، كما سماها احد القبضايات، اوصى على دورة عرق على حسابه لكل الموجودين في الوردة الزرقاء. ثم ردد ابو زكي: يدل على فضل الممات وكونه اراحة جسم ان مسلكه صعب/ الم تر ان المجد تلقاك دونه شدائد من امثالها وجب الرعب. هذا ما ظل يردده ابو زكي على مسامع الجميع تلك الليلة.

انهما البيتان اللذان لم يحفظ ابو زكي غيرهما، رغم انه تجاوز الخمسين بكثير.

كان ابو زكي ضخم الجثة، ذا وجه صارم وصوت جهوري يهز المكان. من عاداته غير رواية ذينك البيتين النهوض فجأة وسط غيوم الدخان، وحركات الأعين الزائغة من السكر، والهواء الثقيل المترسب في فضاء البار، ودون سابق انذار لينشد: موطني موطني، او نشيد حماة الديار. ولطالما استشهد بحكايات من كتاب الأغاني عن الجواري المغنيات او ضاربي العود في العهود الغابرة. بل ومرات يتخيل نفسه، بحضور البارميد، وكأنه واحد من تجار بغداد، تناوله جاريته كؤوس الخمرة. في لحظات سطله تلك، يطلق على البارميد اسم جنان او حبابة او سلاف، او غير ذلك من الأسماء التي حفظها من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني. وبعد ان طفح الكيل ذات يوم بخد عليك، من تكرار ابو زكي، اقترح عليه اما ان يشتري كتاب الأغاني ذاك، ويقال انه جزء وحيد من العشرين جزءا، او يتبرع واحد من الأثرياء لتكملة الكتاب، فقد سئم الجميع الحكايات عينها التي يحكيها ابو زكي او البيتين

ذاتهما وهما يرقصان بين الطاولات كل يوم. ولموت ابو زكي هذا قصة طريفة ظلت تروى سنين في اروقة خمارات شارع شيكاغو. شهد اليوم الذي ودع فيه ابو زكي رفاقه ثلجا غير عادي في مدينة دافئة مثل دمشق. وصل الثلج، ما ان غاب الضوء كلية من السماء، الى نصف متر تقريبا. غطى المئذنة، وتناثر على الأرصفة وتلقفه بردى تلقف الظامئ الى الرطوبة. كنّ الناس في بيوتهم، وأوقدوا اضخم خشب في مخازنهم، ووضعوا سماورات الشاي لتدفئة أجسادهم. تحولت الشوارع الى انفاق بيضاء، واستعاذ المؤذنون من برد تلك الليلة، وتعطلت مصالح الناس وصاروا يهرولون عائدين الى بيوتهم لعلهم يجدون الدفء.

كان البرد في تلك الأيام أشد من الآن، والربيع اجمل، والوقت أطول. كان الناس يعدّون الساعات وهم جلوس على ابواب البيوت منتظرين رحمة الله. الثرثرة هي السلوان، والجهل طاغ بين العامة.

وفي شارع شيكاغو تأكد للجميع ان ابو زكي توكّل على الله وخرج من البار. هجسوا ان الموت يكمن له في زاوية بعيدة دون شك. ليس بسبب تشمع كبده الذي بلغ حده الأقصى. لا طبعا. السبب هو كثافة الثلج وظلمة الليل ووحشته. الثلج كان كفيلا بقتل فيل معافى، فكيف بجثة متحركة ذات كبد مهترئ؟

رأوه وهو يطبق الباب وراءه ويغيب في بياض الأفق، لا احد يعرف الى اين. حتى المطعم النقال حدق الى جسده المتداعي بشيء من العطف والخوف. قال للتنين بعد ايام انه شعر به يطير الى السماء في تلك الليلة ولن يراه ابدا. ابتلع ثلاث زيتونات وجبنة وقطعة خبز وبقايا نقانق ونصف فليفلة، وعب كأسه صرفا على روحه الطاهرة التي رآها تتراقص

في الهواء. مرت ثلاثة ايام ولم يظهر ابو زكي في حانة الوردة الزرقاء. قرأ ابو الفهم كثيرا من فصول المخطوطة العتيقة دون ان يظهر ابو زكي.

حدثت خمس خناقات في آخر الليل، وجرح واحد من القبضايات، وكان يغازل ماغي البارميد بوقاحة اغضبت ابو واكيم. المطعم النقال ظل يتذكر ابو زكي رغم انه في الأيام السابقة كان مشغولا بتجهيز اطباق السلطة والشنكليش والزيتون والكبة النيئة، من سلته المحمولة التي اتخذها مطعما متنقلا، يحمله على ظهره اينما حل او ارتحل. صندوق من القش، له باب صغير يقفل بخيط، جمع فيه مونته اليومية من جبنة وخبز وخيارة وقرص بندورة، واحيانا كان يضع رأسا من البصل. رائحة المطعم النقال عادة ما تسافر خلفه في الشوارع، لكنه في الوردة الزرقاء يصير ملكا على المدمنين، والمشردين الذين لا يمتلكون نقودا لشراء ما يسد جوع البطن. العرق حارق، والجوع كافر. لم يسأل عن ابو زكي علانية، الا القليل من رفاقه. لاحظ ابو واكيم ان الرجل توارى عن الأنظار فترة اكثر من المعتاد فخالطه القلق. لم يقلق عليه حقيقة، بل على ديونه المستحقة المدونة في الدفتر السميك.

ثمة في المخزن ترقد عدة اشياء مرهونة تعود الى ابو زكي. ساعة جيب ذات سلسال من الفضة، وجاكيت من الجلد الأصلي جلبه كما قال من بيروت. كنزة مطرزة بخيوط الذهب، اشتراها من ارمني مر ذات يوم بدمشق وسرقت نقوده، وكان في طريقه الى السعودية. لكن ما فائدة ذلك امام حساب طويل يمتد الى سنوات؟ وعند الظهر دخل الى البار البلطجي سعدو، ذو الذراع الموشومة بالحيوانات البحرية، ويعتقد انه كان بحارا في ميناء اللاذقية. دخل وأخذ يصيح : ابو واكيم.. ابو واكيم،

لقد رأيت جثة ابو زكي في الثلج. اين؟ سأله ابو واكيم. قريبا من حارة عين الكرش. كانت مغطاة بالثلج قرب عمود كهرباء. يبدو انه مات منذ تلك الليلة التي غادرنا فيها. لقد غمره الثلج ثلاثة ايام. الحمد لله ان الكلاب السائبة لم تأكله. تنادى الجميع للنهوض الا ان ابو الفهم اصر عليهم اكمال قصة طائر السمرمر التي جاء بها البديري الحلاق موصوفة بغرابة، انستهم موت ابو زكي، على الأقل للحظات. قرأ ابو الفهم بمتعة ولذة فيما غيوم الدخان تتسلل الى مخزن الرهونات وتضيف طبقة ناعمة من السمرة على الأحذية القديمة والخناجر المفضضة وأطقم الأسنان والجزمات الجلدية والكؤوس المصنعة في مشاغل جوبر، واللفحات المشغولة من البروكار: السمرمر نوع من الطير الذي كان الناس يعتقدون انه يفتك بالجراد. فكانوا يحرصون على الاتيان به اذا نزل الجراد بأرضهم، ولكنه لا يأتي الا تابعا نوعا خاصا من الماء، يجلب خصيصا من عين بين اصفهان وشيراز. فاذا نزل الجراد بأرض جلب اليها من تلك العين ماء، بحيث ان حامل الماء لا يضعه على الأرض ولا يلتفت وراءه، فيبقى طير السمرمر على رأس حامل ذلك الماء كالسحابة السوداء الى ان يصل الى الأرض التي بها الجراد. فتقع عليه الطيور وتقتله. وقيل من شرطه ان يكون حامل الماء من اهل الصلاح، ولا يمر به تحت سقف، فان فعل بطل مفعوله. ويبدو ان ماء السمرمر لم يفد في مكافحة الجراد، فلجأ القوم الى مراسلات يكتبونها له ويعلقونها، فلم يحصل ضرر على الزرع، وظهر من ذلك تأثير عجيب في دفع مضراته. وفي هذه المراسلات يعلن الجراد المغير بالحضور الى مجلس الشرع الشريف بدمشق، لسماع الحكم عليه بالرحيل. ثم بطل اعتقاد الناس في ماء السمرمر وفي

الأدعية والمراسلات، ولجأوا في مكافحته الى جمعه ودفنه واحراقه. ولكن اعتقادهم في طير السمرمر نفسه ظل قائما الى زمن متأخر. وصل الجراد للشام، يقول البديري الحلاق، وكان حولها له سنين مخيم، فنزل على بساتينها، فأكل حتى لم يبق ولم يذر، فأرسل حضرة الباشا رجلين من اهل الخبرة يأتونه بماء السمرمر. بدأ يزحف مثل النمل والذر، فبدأ يأكل الزرع ويتلف النبات، فوقعت الناس في كرب عظيم. فنبه حضرة اسعد باشا حفظه الله الفلاحين عموما بأن تجمعه وتأتي به. وقد فرض على الأراضي الخمس، كل ارض قنطارين، وكذلك القرى والضياع، كل ضيعة شيئا معلوما يجمعونه. فجيء به احمالا وأمر به أن يدفن، فدفن منه بعض في مغارة عند مقبرة البرامكة وردم عليه، ثم صاروا يحفرون حفاير في قبور النصارى واليهود ويضعونه فيها. ثم لم يزل يكثر وينتشر، فأمر حضرة اسعد باشا اثابه الله بأن تعاد الفريضة على كل قرية من قرى دمشق، مئتا قنطار، وان لم يأت بالمطلوب فعليه جزاء كذا. وأمر ايضا حفظه الله بعض المأمورين ان تضبط عليهم، وان يضعوه في جبل الصالحية في آبار ومغاير. وفي ثلاثة ايام وضعوا في الصالحية الف وسبعمئة قنطار، من الجراد عدا ما وضع في المغاير والآبار في غير الصالحية. وجاء في يوم الاثنين خبر الى دمشق ان الطير المسمى بالسمرمر قد جاء ومر على قرية عدرا وضمير، واتلف من الجراد شيئا كثيرا. ففرحت اهل البلاد سيما اهل الشام. فخرجت اهل الصالحية ومعهم المشايخ والتغالبة والنساء والرجال والأطفال بالبكاء والعويل والتضرع الى الله تعالى بدفع هذا البلاء ورفع الغلاء ثم زينت دمشق، فرحا برصول السمرمر، احسن زينة. كفى كفى. تصايح التصبحجية

والقبضايات على ابو الفهم المسترسل بقراءاته ولذة الكلمات تدوّم فوق رأسه كما لو كان ملكا للوردة الزرقاء.

نهضت ثلة من المخمورين وخرجت من الباب بضوضاء واضحة، لفتت انظار بعض المصلين الذين خرجوا توا من مسجد الطاووسية. بين الضحك والحزن، الفضول والدهشة، صحبت جمعهم تاركا ماغي البارميد وحيدة، تغسل الكؤوس خلف الطاولة. سار السكارى يتقدمهم القبضايات نحو جثة ابو زكي. الشوارع كانت رطبة ومسائل الماء تتحدر الى الحفر والبواليع. فكرت بالانسان كم هو هش وضئيل. لسعة برد كافية لارساله الى مخالب الموت. وجدوه في المكان الذي وصفه الرجل بالضبط، ملتفا على نفسه، فاتحا عينيه محدقا في نتفات الغيوم التي راحت تركض في سماوات دمشق الزرقاء. وكانت هناك ايضا اسراب من الحمام ترقص بطرب بعد توقف الثلج وصحوة السماء. تلفّ في الفضاء بين جبل قاسيون وذرى اشجار الغوطة. وكان ابو زكي يبتسم ربما لكل ذلك. يبتسم للمشربيات وحمامات الشيخ محي الدين وستائر النوافذ المسدلة ولطائر السمرمر الذي ما رآه يوما. يبتسم لقصص البديري الحلاق العالقة في رأسه الساكن. ومن هناك حملوه، ثم يمموا شطر الجامع. دخل البلطجي سعدو الى باحة المسجد فيما وقف السكارى منتظرين. قال الحارس ابتعدوا من هنا انتم كفرة وشاربو خمر ومأواكم النار فكيف تجلبون كافرا مثلكم مات من السكر لنصلي عليه؟ امضوا من هنا والا جلبت لكم الشرطة، ثم انتضى مكنسة ذات مقبض طويل فولّى السكارى هاربين حاملين ابو زكي على الأكتاف، ميممين شطر شارع شيكاغو. كان ابو زكي رجلا مقطوعا من شجرة، بدليل ان احدا لم يتفقده طوال ليالي

الموت التي قضاها في عين الكرش. وتبين لاحقا انه يعيش في عشّة متداعية تلطي في سفح جبل قاسيون. أخذوه بحنطور الى هناك. غسلوه في مسجد صغير يقع في أزقة الشيخ محي الدين وكفنوه ورشوه بالمسك، وساروا به الى العشّة.

هل يمكن لانسان ان يتخذ مسكنا مثل ذاك؟ حتى الجرذ لايمكنه العيش في هذا العراء. من أدخل في رأسه فكرة العيش على السفح؟ لا أحد يعلم. ثمة بقايا موقد للنار وفراش متسخ ملقى على كارتون سميك، وأعقاب سجائر تعد بالملايين. الابريق أشد سوادا من الكحل، وبرميل الماء ملوث بالوحل والرواسب الخضراء. كان بقية بشر، ذلك المسكين أبو زكي. وقتها عرفت لم جعل من خمارة الوردة الزرقاء بيته الحقيقي، لا يفارقها منذ الصباح وحتى تغلق أبوابها. الوحدة سم بطيء يفتك بالجسد. كم سنة ظل ابو زكي وحيدا؟ ليس سوى صخور الجبل وجرذانه وحماماته تعرف الأمر. البعض يأتي الى الحياة وهو رقم مهمل ثم يرحل وهو رقم مهمل أيضا. ولادته وموته سيان. لكن ما الفرق بين المهمل والمحسوب اذا كان الموت هو المآل؟

كان موت أبو زكي درسا بليغا من دروس حياتي الماضية.

تحلق حوله السكارى، وحفروا بضوضاء مصمة قبره وسط العشّة. حفروا القبر الأول فوجدوا فيه عربيدا مهولا أرعبهم، والعربيد ذكر الحيات، جاء خبره في الف ليلة وليلة حين لبث السندباد وحيدا في احدى الجزر. هل كان علامة من علامات السماء لي وللصعاليك؟ ما هو المعنى من خروج عربيد من الأرض؟ هل جاءت اللحظة لترك شارع شيكاغو والتوجه الى الحياة الجادة؟ اسئلة مرت في ذهني مثل برق خاطف.

الحكمة تأتي احيانا على حين غرة، لكنها بالتأكيد ليست وليدة اللحظة. انها تراكمات اسئلة تحتاج الى حلول. وفي لحظة خاطفة مر أمام عيني شريط حياتي كله. وكنت اقف متأملا ما يجري حولي، وكانت دمشق سعيدة بنموّها الحثيث. طمروا الحفرة وظنوا انهم وقعوا على مسكن جن او شيطان متخف في الجبل. لا يرغبون بدفن رفيقهم في وكر للجن والغيلان. تمنوا لو يرضى عنه الشيخ ابن عربي ليكون جارا له، لكنهم وجدوا الأمر بعيد المنال. بل لم يجرؤوا حتى على استئجار مقرئ له. جسده حتى بعد ان غسلوه في احد المساجد الصغيرة ظل ينث رائحة الكحول. اصبعه كان ربع جن. زنده قنينة سبيرتو. رأسه طنجرة عرق معتق. فمه زق ينز البيرة والويسكي والكولونيا والبراندي المحلي وشراب التين. فكيف يتورطون بقارئ متدين ينوح على هكذا مخلوق؟ حفروا ثانية فلم يجدوا اي ثعبان، فما كان منهم الا ان دفنوه بجلال.

رأوا دمشق شاسعة مثل بحر من الخمرة، يطل عليها بوداعة قبر شهيدهم ابو زكي. في البعيد الجامع الأموي وقد استحال بقعة نورانية في هذا الخليط من الأزقة والبيوت والأبنية العملاقة. الغوطة لطخة سوداء من شجر الكمثرى والخوخ والمشمش. مزارع المشمش تمتد الى تحت التلال، وثمة رفوف بيض لحمام يطير سابحا في الضباب الخفيف. لم تسكني موهبة التقمص لكي أطير مع رف الحمام ذاك. كنت أتامل في تلك الحمامات كما لو كانت الحياة ذاتها، وهي تطير حرة من افق الى آخر. اين تحط او تتجه، وكيف تقع في الشباك، لا احد يتوقع مسبقا. صفصاف بردى بدا حزينا ومنكس الرأس.

الشجرة التي تطل على القبر شجرة توت، لم يصل الى جذعها

عشاق سابقا. ليس هناك قلوب مخرومة بسهام ولا قطرات تنزف الهوى. لا يصل هنا سوى الموتى وأصدقائهم. كم مر على هذه المدينة صعاليك ومشردون ومتسكعون؟ كم شهدت ازقتها خيانات وبكاء وتوسلات؟ الموت وجه من وجوه الحياة. هكذا تقول المقابر، سواء في الشيخ محي الدين او في الدحداح او في القابون او الباب الصغير. فاجأهم ابو واكيم وهو يخرج قنينة من البراندي المحلي ويحتسي منها قليلا ثم يرش على تراب القبر قطرات متلاحقة من ذلك الشراب، وسط تهليل الحضور وحماسهم للفكرة. قال قولته المشهورة التي يتذكرها شارع شيكاغو جيدا: مثلما عندنا الجندي المجهول، سيكون عندنا في هذا المكان مزار نأتيه في المناسبات القادمة، وسوف نسميه قبر السكرجي المجهول. قال ذلك ثم سكب بقية القنينة على وجوه السكارى وثرى القبر وأغصان العشة المبنية من القصب وساق شجرة التوت. دعاهم لأول مرة، الى سكرة اخت قحبة على شرف الميت، وذلك في خمارة الوردة الزرقاء، فتبعتهم.

- الى ماغي ايها المشردون، زأر ابو واكيم بصوت راعد مصم، ثم انحدر راكضا نحو المدينة.

* * *

الأفق البعيد يقود المرء الى الحلم بحياة أخرى، او الى واقع آخر يكمن في لمعان المياه وفي ذؤابات الاشجار المظللة لقباب التكية السليمانية والمتحف الوطني. زنوبيا كذبة كبيرة في رأس نسيم بيك. كؤوس البيرة ترفع الخيال في الرأس سنتيمترات، والأغاني المنطلقة من

فضاء البار تدخل الجالسين الى مكامن أرواحهم. كان مشرب الكرنك محطة اخرى من محطات الشلة. ينتهون من الخمارات البعيدة التي تبيع العرق ثم يجيئون الى هنا آخر الليل لاحتساء البيرة. الشواذ جالسون، يراهم المرء سوية على الطاولة يتغامزون ويتسارّون ويتشنون في مشيهم. انهم صعاليك من نوع آخر. انهم صعاليك العالم السفلي، مثلما للمدينة صعاليكها من الشعراء والفنانين والصحفيات والكاتبات وعاشقات الأركيلة في مقهى النوفرة. في مقهى الروضة تكتظ الطاولة بالجالسين، وتتصاعد موسيقى الكّلمات مثل أعصار. هل تجلس الشلة هناك في هذه الساعة؟ تلك واحدة من طقوس الشتاء. زكي وخليل واكرم ومحمد وناصر النعسان والحاشية التي لا يعرف اسماءها، تأتي بغتة وتختفي بغتة؟

التفكيكية والبنيوية، قصيدة التفعيلة وشعر ابي تمام. اللاوعي والعالم الجديد. العولمة وما ادراك ما العولمة، انها قرية صغيرة كل ما فيها عجب. تشع عينا زكي وهو يطرح رؤيته الجديدة حول بورخيس. ويبتسم الشاعر ضارب البزق، حين يخبره احدهم بجمال الحوار الذي قرأه في الكفاح العربي، او مقالة عن ديوانه الأخير. لكن ذلك كله سرعان ما ينتهي في كأس مترعة وتلال من السلطة وبحيرات من اللبن المثوّم في حانة بغداد، حيث الرؤوس تضيع في الدخان. تضيع في الأفكار. في تلك البناية العتيقة المسكونة بالأشباح. في تخيل الصدور والسيقان والأرداف. وينسج عالم آخر، لايمت الى المدينة بصلة.

اغنية الكورس نفسها تنطلق كل يوم في الشوارع: تماري ياكعك، حمرا وريانة يابندورة، كلاوي يافول، اصابع البوبو ياخيار، ريانة

ياعوجا، للعطشان ياعرق سوس، طيب ياعرق سوس. مكانس مكانس، اللي عندو عتايق، بيضا يادرة، ريانة يابيضا، وذلك نبض الشوارع ودفقه اليومي. منه تنطلق حياة ابناء المدينة. هذه المرأة الشابة اللعوب، التي تعيد له ذكريات شبابه في كل موسم. شبابه الذي أكلته النساء والكتب وكؤوس الخمرة. ووسط كل هذا الرنين لمدينة تختفي بنفسها مثل صبية يتذكر قول البديري الحلاق: شاع ان بدمشق امرأة يقال لها السماوية، تمسك الاولاد بالاحتيال والرجال ايضا، لاجل ان تخرج السم منهم، فخافت الناس وكثر الفزع. وصارت الناس توصي بعضهم بعضا منها. وبعد مدة وقعت ضجة بين الناس فقيل ما الخبر قالوا قبضوا على السماوية، واذا هي امرأة عجوز قبضت عليها العامة، وخلفها الأولاد والرجال كالجراد. وهم يضربونها ضربا وجيعا، وذهبوا بها لعند القاضي فسألها عن حالها ومن اين اتت. فقالت والله يا سيدي انا امرأة فقيرة الحال ولي اولاد وعيال وهذا القول عني زور وبهتان. قال فأمر القاضي بتفتيشها وتفتيش بيتها ففتشوها فاذا معها لعب يلعب بها الاولاد والاطفال، وفي جيبها طواقي كبار وصغار، ثم ذهبوا وفتشوا بيتها، فلم يجدوا فيه غير متاع عتيق وقطعة من الحصير. ثم شهد جيرانها بأنها امرأة فقيرة الحال ولها زمان قاطنة في هذا المكان ولم نعلم لها سوء حال ثم اطلقوها فذهبت لحال سبيلها.

ما الذي جلب البديري الحلاق في هذه الساعة من وجد دمشق وضوضائها؟ اهي المرأة المسكينة التي اتهمت ظلما، ام رنين شارع شيكاغو في رأسه بعد تلك الحكايات التي لا تنتهي؟ ام مرأى مئذنة جامع الطاووسية الذي كان سببا لاغلاق شارع شيكاغو، بحاناته

ومطاعمه وكبريهاته ومشاغله الصغيرة؟ هل يجد صديقه في مشرب الكرنك بعد هذه الغيبة الطويلة، وقد اصيب بتشمع كبد حاد عالجه بقطع الشراب أياما ويظن انه شفي؟ ما الذي يجذبنه الى هذا المكان المعلّق في الطابق الثاني والمطلّ على بردى؟ ولم يجئ وحيدا هذه المرة دون زكي وأكرم وذلك الصديق الذي يكتب الروايات وخليل وابراهيم السمكري؟ الوحدة ضرورية احيانا. انها مقدمة للوصول الى الوحدانية. وكتلة هذه المدينة كانت تعصف في رأسه وهو يرتقي الدرج الضيق، نحو صالة المشرب. دخان سجائر فاخرة، افريقيون، خليجيون، ورائحة البيرة والوسكي تفغم الأنوف. الندل يعرفونه هنا. والشواذ ما زالوا على الطاولة ذاتها، كأنه لم يغب عن المشرب ولا يوما واحدا. صديقه هناك. فيلسوف اللواط الذي أدهشه بوجهات نظره عن الخنثى، وعن الامتلاء والفراغ. يتكئ على افريز النافذة، محدقا في الجبال البعيدة ونهر بردى الساهم الذي يقيس السنوات بقطرات الماء المارة بين دفتيه. وجده كعادته، في المنطقة التي تضيع فيها الحدود بين الذكر والأنثى. تلك التخوم حيث يقف المسكين في الشبّاك، لاهو خارج ولا هو داخل. كان عادة ما يخاطب السماء سكران: الهي لم خلقتني هكذا؟ انا في تخوم الوحدانية، والتأمل الفلسفي في قضية اختفاء الحد بين الذكورة والأنوثة كما الله في عليائه!!! قص له قصته عن معاناته في هذه الحياة. لقد كتب عليه ان يمتلك موهبة لا يمتلكها الا نفر قليل من البشر، انها موهبة الاصغاء. هذا ان اراد ذلك، وكف عن ان يكون مطحنة كلام. جميع اصدقائه يحسدونه على هذه الموهبة، لكنها مرهقة جدا. الاصغاء الى المتكلم، والتركيز على ما يقول ومتابعة سلسلة الأفكار والأحداث، ثم

احكام النظر في ما يقول هل هو صادق ام كاذب، مكرور ام مبتكر، جديد ام قديم. كل تلك الأشياء تتعب الذهن جدا وتستنفد الروح. لكنه وما ان يستخدم طاقته في اختراق قشرة الرأس والتوحد مع الأفكار حتى التي لا يباح بها، وجد صاحبه صادقا، يتكلم بوضوح ودون اقنعة. وصاحبه لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى، عادة ما يضيع في تأملاته الصوفية كي يوائم بين تمزقاته الروحية. تستهويه الوحدانية كما يقول، وينجرف الى بحث فلسفي في ضياع التخوم، والتوحد، والحلول، في السماء، والأرض. ضياع الرجل بين الانسان والذكر، والمرأة بين الانسان والأنثى. معاناة التوفيق بين كل ذلك، في بار الكرنك بساحة المرجة، وعن حياته السالفة حدثه ثم حدثه. والجالس في الكرنك يطل على شارع طويل يمتد من ساحة المرجة صعودا نحو المزة ليضيع في تخوم الربوة المطلة على جبال لبنان.

جلسا قرب الشباك يتأملان الغروب في المرجة، حيث الساحة التي تغص بالجنود والمتسكعين، والقادمين من الجزيرة، وهم يحدقون في هذه المدينة العجيبة المسماة دمشق التي طالما سحرتهم بحكاياتها وجوّها وناسها ونسائها ومشاويها وخمورها. قال له اسمع يا صاحبي قصتي واحكم على هذا الارتباك البشري الذي نمر به، ابناء الجنس البشري المهددين بالزوال.

- حدثني، فأنا جئت لاسمع ما يلغط به البشر ويتحرق الرجال للبوح به بعد كؤوس الخمرة.

- عن أي شيء، وحياتي شبه جحيم، وأنا اتمزق بين رؤيتين، انثوية وذكرية.

– ليكن الله في عونك، ولكن لابد ان للأمر وجها حسنا وايجابيا، فالطبيعة خلقت لكل شيء ضده.

– احيانا اقتنع بنصيبي واقول انني منحت ما لم يمنح للذكور، الا وهي روح الأنثى، تحسس الأشياء الصغيرة والجميلة، وذلك الشعور الذي يظهر احيانا بمحبة الجمال سواء جمال المرأة او الرجل، ومن ذلك العيون خاصة. انا مسحور بالعيون الجميلة، تلك التي تمتلك التماعة خاصة هي التماعة الأنوثة في الذكر والأنثى.

– هل نشأت هذه الازدواجية منذ الطفولة؟

– نشأت صبيا صغيرا في البحصة، وهي لاتبعد كثيرا من هنا، ايام عز شارع شيكاغو، ودمشق كانت مثل قرية صغيرة. عمري عشر سنوات، اقضي نهاراتي بالتسكع في سوق الحميدية والمناخلية وأصعد احيانا الى الشيخ محي الدين، اتفرج على سوقه او اقلى ببضاعته. وكان لنا جار شاب، لديه دراجة هوائية، يزينها مثلما عروس في ليلة الدخلة. كنت اقف قربه، اداعب الريش المثبت على المقود، وأضغط على المزمار لينطلق صوته المرعب، او أقلى وجهي بمراياه العديدة على الجانبين وفي الخلف. أكثر ما سحرني بتلك الدراجة سرجها المغلف بالاسفنج. اما العمودان اللذان يربطان السرج بالمقود فقد غلفه جارنا سرحان بأشرطة تطلق اصواتا ما ان يجلس عليها المرء. هل ترغب بمشوار معي؟ سألني سرحان ذات يوم، وكدت اطير من الفرح. اللحظة التي انتظرتها طويلا، كي اركب هذا المخلوق العجيب. متى؟ صحت بلهفة. غدا ظهرا، ما ان تسمع صوت الزمور. وليلتها لم استطع النوم. سأمتطي دراجة سرحان اخيرا، وسيعلمني ركوب الدراجة بلا شك، قلت لنفسي وانا اتقلب في

الفراش. كان الصيف ساخنا، عادة ما نقضيه في اللعب في الحارات، او التسكع، رغم انني احببت قراءة القصص الشعبية مثل الزير سالم وعنترة وغزوات الامام علي. كان اخي الاكبر يشتريها من سوق الحميدية، قبل انتهائه عند باب الجامع الأموي. كنت اقرأ المجلات ايضا كالشبكة والصياد وطبيبك، وطبعا كل ذلك من خلال اخي.

وفي ذلك اليوم رابطت في باب بيتنا ما ان انهيت افطاري. مترقبا ظهور سرحان مع دراجته الهوائية. فكرت ان سرحان شاب طيب، ولن انسى له هذه البادرة الفريدة. ثم فجأة وانا اتطلع في زوايا الشارع وأبوابه سمعت صوت الزمور، وخرج سرحان من بيته تتقدمه دراجته المزينة بالريش. اصعد امامي. صعدت. وجدت نفسي محصورا بينه وبين المقود، وحين تحرك نحو الغوطة بدأت الشرائط البلاستيكية تحتي تزقزق كلما انعطفنا او درنا. رأيت الأشجار تركض خلفنا، ووجوه المارة تمرق بسرعة هائلة، وكان الهواء يداعب وجهي بخفة، وبين حين وآخر تصطدم بي ذبابة او بقة او حصاة طائرة من السيارات المارة او عربات النقل. امواج من الريش تعبئ الفضاء، والسنونو يرسم خرائط غير مفهومة. العالم يدور بي، والسماء زرقاء مليئة بالقبر والحمام. وفي المرتقيات والمنحدرات، ما ان نميل او نقفز، احس بسرحان يقترب مني، انفاسه تتردد بلهاث خلف اذني. يضغط على ظهري ببطنه، ينزل احيانا من السرج ليلصقني بالمقود مع احتكاك غير مفهوم من شيء صلب كان ينغل في اعلى مؤخرتي. لكنني مع شعوري بتلك الحركات غير الطبيعية، كنت مأخوذا بذلك الشريط الملون من الأشياء المتحركة حولي.

ثياب نساء، ابواب، طيور بعيدة، طائرات ورقية، غبار خفيف يرتفع من مكان ناء، ومدخنة ترش السماء بدخان كحلي. الهواء مثل اجنحة فراش يتراقص على جفوني وخديّ وشعري، وسرحان يطوقني مثل ام رؤوم.

دخلنا في فضاءات برية. لم نعد نرى الا قليلا من المارة.

قال لي سرحان هامسا: هل تريد ان ادربك على الركوب؟ اجل اجل، قلت بلهفة بعد ان اوقف الدراجة وانزلني منها. سأركب وراءك، وستمسك المقود اولا بينما احافظ انا على التوازن. وبدأت خطواتي في التدريب، وهي الخطوات التي قادتني الى ان اصبح لوطيا بحق. لا تستغرب صراحتي، فلكل شيء بداية، وكانت تلك الظهيرة بدايتي. لم اختر مصيري، بل رسمه لي شخص آخر اسمه سرحان. هناك احسست بأول قذف ورائي. فبعد ان راح سرحان يقودني الى موهبة الركوب، كنت منصرفا تماما الى حفظ توازني، رؤية الطريق، التمسك بالمقود، مع وضع قدمي على الدواستين، وكل ذلك يتطلب التركيز على ما اقوم به والأنصراف عن مراقبة جسدي. اكثر من مرة افقت على نفسي وقد جلست على شيء سرحان الطويل والصلب، فكنت أفز مثل الملدوغ، لكن انشغالي بالطريق والاصرار على تعلم ركوب الدراجة واكتظاظ الأشجار حولنا، انساني ما هو خلفي.

كنت مثل مخدر. الأمر ليس قليلا ان يتعلم صبي من حارتنا ركوب الدراجة. ليس سهلا امتطاء دراجة سرحان المشهورة في كافة الحارات المجاورة. كنت غائبا عما يدور ورائي الى ان افقت من نشوة الركوب على مسلوت سرحان وهو ينبض تحتي، وسرحان واضعا يده على

صدري، ضاغطا وجهه في رقبتي. لم اعر الأمر التفاتا وبقيت منسربا مع مغامرتي الهائلة.....لكن لم تهتم انت بهذه الأشياء؟ الفضول اليس كذلك؟

- كلا انا اكتب كتابا عن يومياتي. وأجمع له حكايات المدينة. قل: قاعها، السكيرين ووقادي الحمامات، والعاهرات، والشعراء الهامشيين، والمهاجرين من القوقاز والقنيطرة وفلسطين. اي كل ما يعطي المدينة نكهة خارج المألوف والمتعارف عليه.

- افهم انك تكتب الروايات والقصص، ام انت شاعر؟

- كلا أنا كاتب، اكتب الشعر وأؤلف القصص والمقالات، وأسلّي روحي بالأحاديث، واشرب العرق في حانة شارع بغداد، هل تعرفها؟

- كلا، منذ اغلقوا شارع شيكاغو لم افارق الكرنك، احسه مثل بيتي. لكن خبرني كيف تكتب؟ اود لو اكتب مذكراتي وتأملاتي عن الموت والحياة والشذوذ وما الى ذلك من امور.

- هل تعرف رؤوف وحيد الدين؟

- سمعت عنه. ما به؟

- لقد امضى شبابه في أروقة شارع شيكاغو.

- كيف تكتب الكتب؟ هات علمني.

- هذا الكتاب على سبيل المثال، الهمني اياه اصدقائي، فهم غريبو الأطوار. هناك السكير الذي لا يصحو من سكره ابدا، ويعيش على هبات الآخرين، ولا يشتغل شيئا، حياته فقط قراءة الكتب والسكر والحكي. وآخر رغم انه شاعر لكنه يعزف الطنبور كما لو كان زرياب الموصلي، يغني بثلاث لغات، الكردية والعربية وقليل من التركية،

يتمتع بقدرة فائقة على الحديث، خاصة ما يخص اسرار الأصدقاء وقصصهم مع الفتيات. حين تلعب الخمرة في رأسه كثيرا ما كان يفكر بالانتحار، يحس ان الحياة لا تعني شيئا. رأى نساء وشرب خمورا وسافر الى بلدان بعيدة، وأصبح شهيرا، ثم يسأل روحه في اوقات الفراغ الروحي وماذا بعد؟ ثمة صحراء غير معقولة تستفز نفسه بالسؤال: ماذا أعمل هنا في هذه المدينة، ولم أستمر بالعيش، وما الجدوى من الشعر والغناء؟ ثالث من اصدقائي، يملك اسرة ولكنه لا يراهم الا في الأعياد. يكتب احيانا لهم رسائل عبر البريد، يخبرهم عن امور حياته المهمة، كأخبار صديقته في باريس التي يأمل ان ترسل له دعوة ليهاجر الى هناك، وأحيانا يتلفن لهم بين صحوتين لكي يطمئن على امه فقط، فهي الكائن الوحيد الذي يهمه في هذه الحياة بعد صديقته. والملهم الأكبر طبعا هو زعيمهم رؤوف، اذ جعل من شخصيات شارع شيكاغو اصدقاء للجميع. اعطاهم عمرا اضافيا حين جعلهم يعيشون في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، ولا يغفل عن ذكر البديري الحلاق، ايام العظم. وربما هذا ما دفعه الى شراء هذا الكتاب القيم ومعرفة احوال بلاد الشام في تلك الفترة الحرجة من سلطنة بني عثمان. اصدقائي الملهمون كثيرون في الحقيقة، هذا عدا عن الصديقات الصعلوكات اللواتي لم اذكر اسماءهن خوفا من الفضيحة، او خوفا من سكّين واحد من الأخوة او الآباء، او اطلاقة تائهة في الظلام، تستدل على رأسي عرفانا بضرورة الشرف والسمعة.

ران صمت وغامت عبون الجالسين. صالة المشرب معبأة بالدخان.

تقوقع الشاذون على انفسهم وسرحوا في همس يخصهم. النذل يروحون ويأتون جالبين البزر وزجاجات البيرة وكؤوس الويسكي. اغنية

عبد الوهاب الهوان وياك معزة تنطلق من مسجل غير مرئي. والدنيا أعتمت على ساحة المرجة، واحس رؤوف انه تكلم كثيرا عن الكتاب وعن هموم اصدقائه وغيّر شخصيته حيث عبّر عن نفسه بضمير الغائب. كان يستخدم هذا الاسلوب باستبدال اسمه، كلما وجد نفسه في بيئة غريبة من البشر، ولا يرغب ان يعرفه احد. طريقة وجدها ملائمة للبوح والتسارر وعمل الموبقات دون ان يعرف الآخرون من هو. مارسها مع صديقه الفيلسوف بحذر، لأن مشرب الكرنك موبوء ليس بالشواذ فقط، بل بالمقامرين والمهربين واللصوص والمخبرين، لذلك فتنكير الحال ضرورة. خاصة بعد ان فرض الصمت في الكرنك جلاله. غار صديقه في هواجسه ورغباته الدفينة، وجاءه، بعد كأس من الويسكي استدركه كي يسبح في ضباب الأفكار والماضي، صوت ابو واكيم، وقد كلل وجهه الشيب وتحولت تجاعيده الى صفحات كتاب. بدأ ابو واكيم يقص له عن شارع شيكاغو وملكته المتوجة ماغي. ويسترسل في وصف مخزن الرهونات وأسراره، تلك الأسرار التي لا يبوح بها لأي كان. الأمر يخص أسرا عريقة في الشام، ووجهاء تركوا عادة السكر وأصبح لهم وضعهم الاجتماعي المحترم، ونساء كن عاهرات ذات يوم ثم تبن وتزوجن، دافنات ماضيهن في مخزن الرهونات في خمارة الوردة الزرقاء.

ثمة حمّام يطل على عري النساء في مساكن برزة.

ينتظره هناك صرصور وعنكبوت، ووحدة، اعتاد عليها.

وكان الزمن قطرات غامضة، تنساب في بردى.

قطرات تتغلغل بين الثيل والاشنات وبقايا الجرائد وضفادع الطين.

* * *

صار الليل في نهايته. أضواء الحديقة المقابلة، تسبح في ضباب خفيف. تهب من القمامة المنتشرة حول الحديقة رائحة عطنة. بقايا سوق الخضار لا تبعد سوى امتار عن باب الحمام المجاور. تمرق بين الحين والآخر قطة قادمة من الأشجار لتستقر قرب طاولة من الطاولات. تدخل أخرى الزقاق المظلم ثم تغيب في الدهاليز والأدراج والأسطح. تنكة الزبالة قرب السياج متأججة بالنار. اللهب يتصاعد منها مختلطا مع الدخان. ثلاثة زبالين كانوا يتدفأون عليها، ويجّون سجائرهم بلذة واضحة. في الساحة القريبة تاكسيات تدور وتدور باحثة عن زبائن. افراد قليلون يخطفون بغتة من شارع الى زقاق معتم، ملفّعين بأسرار وحبوات غامضة. عربة المشاوي عاجة بالأنوار، تضيء الأكباد والقلوب واللحوم المقطعة المحاطة بالبقدونس الطازج وحبات الليمون والبصل المقشر. أمام العربة تنتصب منقلة الفحم تفح منها نيران الشواء.

تجمعت الشلة على احدى الطاولات منتظرة وجبة المشاوي. خليل وأكرم الداية وزكي وابراهيم السمكري. لعب السكر في رؤوسهم، وراحوا يتفلسفون كالعادة. شرحوا سياسة أميركا في المنطقة، وتناولوا بالتفصيل قصيدة النثر وروادها، ودخلوا في متاهة العوالم السفلية لمدينة مثل دمشق، وهمّوا بدخول واحد من الفنادق الرخيصة كي يروا العالم السفلي على الواقع، بما فيه من غرف مغلقة وأجساد بضة ومساومات ولذائذ. ظل الجوع امضى حجة على بقائهم في جوار عربة الليل المضاءة اللحوم. انهوا عرقهم ومازاتهم وحواراتهم الجادة في بيت أكرم الداية، عند مرتقى ركن الدين، وجاءوا لمعاقرة ليل المرجة، وهو طقس طالما توّج سهراتهم السابقة، لكن بحضور رؤوف وحيد الدين. لف الحديث ودار، تشعبت

دروب الفكر المشبوحة على تخوم الخمرة وتجلياتها. وجدوا ان موضوعهم الأثير، الذي هيمن عليهم منذ جلسة البيت، هو معلمهم وملهم أفكارهم، رؤوف وحيد الدين ذاته.

- أين هو الآن ياترى؟ سأل ابراهيم السمكري.

شارباه الكثان كانا يتراقصان على شفتيه الناعمتين، كما لو أنه يستعيد حديثا سابقا لم ينقطع.

- تلفنت له عدة مرات فلم يجب أحد.

قال خليل، ونظر في الوجوه نظرة غائمة، سابحة في بخار النعاس.

- لا يمكن ان يظل رؤوف في البيت الا اذا كان مشغولا بالتلصص على الجيران.

- قال لي البارحة ان الثقب لم يعد يجدي نفعا، فما ان يصب الماء الساخن حتى يتضبب البلور، وينقطع الفيلم. اي انه لا يرى سوى مقدمة الفيلم.

- ماذا تقصد بمقدمة الفيلم؟

- حين تشلح المرأة لباسها قطعة قطعة، وتقف عارية امام المرآة، او تنحني على طست الماء وتحضر الشامبو والصابون، وتجلس متهيئة للغسيل.

- والفيلم؟

- ما يصاحب ذلك كما أخبرنا رؤوف، من حركات كالفرك واللمس ومداعبة ما بين الفخذين، ونزول المياه على الردفين اثناء القيام، والعري الأنثوي وهو يجد نفسه متوحدا مع الماء.

- تخيلوا رجلا في الستين مازال مهووسا بالنساء. أظنه يعاني من

مرض نفسي. غير معقول هوسه بجسد المرأة. قال انه يود أحيانا، في لحظات المضاجعة، لو يدخل رأسه ويرجع الى ذلك الرحم الدافئ ويستقر الى الأبد. يستمتع بالمشاهدة والشم واللمس. لذلك لا يحب المضاجعة في العتمة. ويكره المرأة التي تطلب منه اطفاء النور. الرجل كائن حسّي على ما يبدو.

- الا تعتقدون ان ذلك العجوز النحس يخدعنا؟ على الأغلب يقوم بمشروع مهم لا يرغب البوح به. كتابة يوميات دمشق مثلا؟ الم تلاحظوا تكرار غيابه في الفترة الأخيرة؟ ربما تأثر بمذكرات البديري الحلاق التي دون فيها احداث دمشق، ايام الوالي اسعد باشا العظم. ان كان ذلك صحيحا فسوف يخلد اسمه كما خلد اسم البديري. تعرفون انه يعشق الشهرة والفخفخة. لا يغرنكم ادعاءه بالتصوف والتقمص وكل تلك الخزعبلات. انه شيخ مأفون ومدع.

- ذات يوم حدثني عن ذهابه اسبوعيا الى مرقد الشيخ محي الدين بن عربي. يجلس هناك قرب الحلّة الزرقاء ليمتص قداسة الحروف والكلمات المدوّنة على القبر. يظل ساعات جالسا يتأمل في حياته الماضية ويسترجع وجه ابيه وجده ووجه فاطمة وابنا ه الذين غابوا في زحمة الحياة. وذلك يدخل الى روحه، كما أكد، الطمأنينة، فتنتفي الوحدة من داخله، ويسبح الليل كله بأريج القداسة.

- ثم يعود الى مشرب الكرنك ليحتسي البيرة، وينادم الغلمان، يالها من قداسة!!

-انه ليس متصوفا على الطريقة الكلاسيكية. ما دخل الدين بالتصوف؟

- الدين ايمان وتسليم، والتصوف بحث وارتقاء ومعرفة.

- يا له من تصنيف فلسفي مفحم!!!

- لا لا، رؤوف يعشق الغلمان، لابد انه جالس الآن في بيته مع غلام من غلمان مشرب الكرنك، يحتسيان العرق. ومن البديهي ان لا يرد على التلفون في هذه الحالة. فلسفة اللواط والملء والامتلاء، والتماعة العيون الخاصة، والوحدانية حين يكتفي المخلوق بذاته، من اين له تلك المعارف لو لم يخض التجربة؟

قطع النادل حديثهم ما ان وضع صحنا واسعا مليئا بالقلوب والأكباد في وسط الطاولة. تحيط باللحوم رؤوس بصل طازج وبندورة مشوية وحبات ليمون محززة. صار بخار الطعام المبهّر يتصاعد الى انوفهم. تحركت القطط من الزقاق القريب والحديقة، وأقعت تحت الطاولة، او قريبا منهم. بدت عيون القطط ثابتة، افواهها تتلمظ جوعا، ونظراتها تستجدي الآكلين. اضواء خفيفة كانت تنسكب من عربة اللحوم وترسم ظلالهم على الحائط المتآكل، مثل حيوانات خرافية تنقط على فرائسها، وثمة همس يأتي من الزقاق المعتم. استمر صمتهم لحظات وانشغلوا بتقطيع الخبز وتلقيمه باللحوم والمخضرات. تناهى وجه رؤوف وحيد الدين خلف سحابات النهم والجوع. مد زكي يده الى جورابه وأخرج بطحة عرق، وطلب من النادل ابريق ماء.

- اكتملت المتعة.

تصارخوا فيما بينهم، وهللوا لذكاء زكي وتدبيره.

الطعام لا يدخل دون رشفة من الريان. على النشوة ان تظل في اوارها. تلك هي الحكمة. وكان صاحب العربة ينظر شزرا الى الشلة، اذ

ان رائحة العرق دبت على الكراسي والطاولات، وسرت نحو اللحوم والفحم والنار المتلظية تحت اسياخ الشواء. انه يعرفهم جيدا، فهم زبائن دائمون، لا ينقصهم سوى ذلك العجوز القوزاقي الذي يقلب عند سكره الكلمات فلا يعود يفهم عليه. الكبدة تصبح كبة، والسيخ يصير سوخا، والماء يتحول الى ماي ممطوطة، والليمون يحيله لسانه الثقيل الى لمياء وهكذا. أين القى به الدهر؟ سأل صاحب المطعم نفسه، وهو يرمقهم بمواربة أثناء ما كان يشك اللحم في الأسياخ. لا يود استفزاز شلة السكارى هذه. انهم براميل خمر متحركة، ومطاحن للكلام والثرثرة.

أول من نهض من بينهم أكرم الداية. بطنه ضيقة كما عرفوا ذلك عنه، يكتفي بالقليل من الطعام، ثم مضى الى الزقاق ليتبول. ولج الزقاق دون ان يلحظه احد، وغاب ثواني ثم فوجئوا به وهو يعود صارخا:

- جثة ياشباب، هناك جثة في الزقاق.

توقفوا عن الأكل وقاموا ركضا الى العتمة. المكان مرعب. دهليز طويل مسقوف بأعمدة خشبية عمرها اكثر من مئة سنة. انسجة عنكبوت شكّلت في السقف ما يشبه السجادة. ليس هناك سوى ذبالات أضواء تنسل من شقوق ابواب مغلقة وأدراج لا يعرفون الى اين تقود. زوايا تنعطف فجأة الى دهاليز اخرى، وكابينات من الكارتون، ومخازن لأشياء عتيقة لم تعد تنتمي الى هذا العصر. مشوا بحذر، وقادهم اكرم الى بقعة جرداء وراء حائط يسند درجا ضيقا. وجدوا شخصا ممددا على الأرض، يغطيه لحاف قذر حائل اللون، وهو صامت صمت قبر. تقدم زكي بجرأة وشم رائحته من قرب، وضحك قائلا:

- انه ميت من السكر، وسيفيق غدا صباحا مثل الحصان. لابد ان

يكون بائع مسابح، او ماسح احذية فضّل هذا المكان على فندق يمتص منه النقود. المشردون كثر في ساحة المرجة. هيا نعود الى طعامنا.

في السطح سمعوا مواء قطط ودبيب اقدام بشرية توارت بغتة. نوافذ وأبواب يخترقها نور خفيف في الطابق الأعلى. آلاف الحشرات والجرذان والفئران والصراصير تقطن العتمات. لم تلج رائحة انثى هذا المكان منذ عقود ربما. عطن الزمن مترسب في جذور الحيطان وبين شقوق اعمدة الحور ودواليب العربات المتوقفة منذ دهر. صاحب العربة كان يمد رأسه فضولا نحو الشلة، دون ان يتدخل. لقد اعتاد على سلوكهم الغريب. هبوا بغتة وعادوا بغتة. رجعوا الى الطاولة وألفوا القطط جاءت على بقايا الوجبة. انتشرت قطع الكبدة والقلوب على الأرض، وسط قهقهات الزبالين الثلاثة، وشماتة صاحب المطعم.

- حسبته رؤوف وحيد الدين.

قال أكرم، مداريا خجله من الرعب الذي استولى عليه.

- هل تمزح؟ رؤوف لا يصل الى هذا المستوى من الحياة. انه شخص ارستقراطي. لا تنس انه شيخ طائفة، وعميد عائلة.

- لا تنس انه صعلوك حقيقي، وحكاية ارستقراطيته واحدة من أحابيله. اظن ان اباه لم يكن سوى حجّام او خيّاط في سوق السروج.

- سيدي انت تبالغ، انه يمتلك معلومات تراثية هائلة، ولا استغرب خروجه على الناس ذات يوم بموسوعة تراثية غير مسبوقة.

- او كتاب عن اللواط.

- او الباراسايكولوجيا، وعلم التخاطر، والحدس، فله باع طويل بمثل هذه الشعوذات.

- على اية حال أين هو الآن؟

- في بيته.

- لا، في مشرب الكرنك.

- أو يتجول في حارات دمشق القديمة، علّه يقع على باب أثري آخر يصبح مادة تنصبّ على رؤوسنا في الأيام القادمة.

- ربما يحوم الآن حول قبر ابو زكي في سفح قاسيون. فعن قريب سينتقل هو ايضا الى السماء. سيلتقطه الموت بقبعته السوداء ومخالبه السوداء كما وصفه، ويطير به الى مجرة بروميثيوس. سنخلص منه في النهاية.

- انه مفيّز، لو كان ابو واكيم على قيد الحياة لقطع عنه المشروب.

- اغلب الظن انه يشرب العرق على قبر فاطمة ويبكي. صار يراها كل يوم في منامه، يقول انها تنادي عليه كي يلحق بها الى الجنة.

تهاوت خيوط الفجر من التكية السليمانية، والقصر العدلي. كشفت تخوم الأجساد، وأضاءت عتمات الأزقة وسحنات الوجوه. اختفت نار الزبالين، وترسب الدخان على وريقات السرو والكينا. جهز صاحب العربة اغراضه للرحيل. لقد كانت الشلة آخر الزبائن في ليل الساهرين. ليل قاسيون وبردى ومشرب الكرنك. ليل البديري الحلاق والولاة السالفين. ليل ماغي البارميد وسامية الغافية على ريش حريتها. اختفت القطط في جنبات الحديقة، ثم تعالى ايقاع الحياة شيئا فشيئا. تناثرت الشلة بعد ان دفع افرادها الحساب مشاركة، وساوموا البائع على طعام القطط. واحد مضى الى ركن الدين، وآخر الى الزاهرة، وثالث الى المزة، والأخير مضى مشيا الى بيته في المزرعة.

اختفت بعد ساعة رائحة العرق من الطاولة. طلع النهار، وكانت صورة رؤوف وحيد الدين ما زالت عالقة في ذهن صاحب المطعم.

استغرب سبب غيابه.

تساءل بخوف، هامسا لخيوط الفجر، ورائحة الزبالة، وأنسجة العنكبوت:

- هل يعقل ان ذلك العجوز القوزاقي الملوث بصفرة المرض، قد مات مثلا؟

* * *

تطور المجتمع كثيرا، وكان لابد من موت الشارع . ورغم ان موت الشارع نسب الى ابو الفهم، كما سمعت، لكن النتيجة واحدة. وكان ابو الفهم رجلا طيبا، وهو من رواد الشارع المعروفين. قارئ مجيد من قراء التاريخ، وعاشق لقصص البديري الحلاق. لم يضيع كتابا لعنترة العبسي ولا لقرة العين والزير سالم وتغريبة بني هلال وسيف بن ذي يزن الا وأتقنه، حافظا اشعاره خاصة كي يرددها في مجالس السكر. انه واحد من سكرجيي الشام المعروفين، يشرب صباحا فنجان قهوة ثم يبدأ بالعرق لاحقا. الحميدية والحريقة من اماكن تواجده الدائمة. تجار السوق يحترمونه، فأبو جده كان مفتيا، ورث مكتبة فخمة أضاعها على الشرب واللهو. ومن عادة ابو الفهم ان يمرق الى تجار الحريقة يصبّحهم كل صباح، بأنوار النبي. تحيته التي لا تتغير، شتاء وصيفا، ربيعا وخريفا. وهذا يملك قصة يحكيها له وذاك يسأله عن قضية فقهية، والآخر لم يبع شيئا بعد، يقف للتسلية معه. هذا يعطيه القليل وذاك لا يعطيه، وفي

الساعة الثانية عشرة يكون عبأ جيبه بالنقود، كي يصرفها لاحقا على نفسه او على التصبحجية. هذا هو حكيم خمارة الوردة الزرقاء. له في كل قصة خبر. انه قارئ جيد، وموسوعي الثقافة. ورث العربدة من خاله، وبذلك خرج عن خط العائلة، وكان مرشحا خليفة لأبيه وجده في الفقه. لكن الدنيا مصائر وأدوار. لكل امرئ دوره في الحياة. هذه شرموطة وذاك لص وتلك ربة بيت وهذا وجيه. كان يمتلك مخزونا هائلا من المعلومات التراثية. عرف وحيد الدين ابي، وكيف جاء الى دمشق، بل وفسر لي سبب شكلي القوزاقي. ردّه الى المغول والتتار الذين اغتصبوا ملايين من نساء المسلمين.

ابو الفهم هذا، وفي الساعة الثانية عشرة ينتصب امام باب الخمارة مثل اصبع فلفل.

حين يتشتت الحديث على الطاولة، لا يعقّب، انما يمد يده ويقرأ من كتاب البديري الحلاق. يبدأ دونما اتفاق، من اي حكاية يراها امامه على الورق: وفي تلك الأيام جاء رجل من الأتراك الى دمشق، ومعه صحن من نحاس يضعه على عود ويفتله عليه، ويحذفه الى الأعلى قامتين، ويتلقاه على العود وهو يفتل، وينقله من اصبع وهو دائر يفتل، ويلم فلوسا من المتفرجين. ثم صارت اولاد الشام تفعل كفعله، فتعجب من ذلك وذكر انه دار بلادا كثيرة في الدنيا، وما قدر احد ان يفعل كفعله، ثم سافر ولم ير بعد. وأغرب من ذلك انه جاء رجل ايضا من ابناء الترك قبل الذي ذكرناه يصفق بأصابعه، يضرب بالواحدة على الأخرى، ويدق برجله على الأرض دقا محكما، ويغني بالتركي والعربي، فتجمّع عليه الخلق يعطونه فلوسا. فصارت اولاد الشام الصغار تفعل كفعله وأحسن.

وذكر انه دار في الدنيا مدنا كثيرة فلم يتعلم هذه الصنعة سوى اولاد دمشق، واندهش من ذكائهم.

تلك القصص وغيرها. وهذا هو ابو الفهم الذي ضاع من شدة ذكائه، والذي اشتغل آذنا لأحد القضاة، وفي الوقت ذاته معقب معاملات في القصر العدلي ليتسبب بتسكير شارع شيكاغو. تعرفون القصر العدلي لا يبعد سوى عشرات الأمتار عن ساحة المرجة. واجهاته جميلة، ويعتقد ان مصممه فرنسي. لم يعد احد يعطيه شيئا من النقود فاتجه الى الدولة. يعطونه قروشا وليرات ومبالغ قليلة لسد امور معيشته. زوجته كان تلد، وبحاجة الى نقلها الى مستشفى خاص. لم يكن معه ما يكفي. جاء القصر لجمع النقود. سأل المحامين والقضاة وكبار الموظفين. قيل انه من المتخصصين باخفاء الملفات لبعض الجرائم. ظل المستفيدون من التزوير والجرائم ينقّطون عليه القروش طيلة اشتغاله هناك، اما الذهب فيلهطونه كما يلهطون الملوخية. قضى يوما كاملا وهو يركض وراء المعارف الكبار ويشرح لهم ظروف زوجته. لم يفلح بجلب شيء يذكر، حتى توفيت زوجته ووليدها. فراق الزوجة صعب. انا اعرف ذلك اكثر منكم كوني جربت الفراق. ماتت فاطمة بين يدي على طريق المزة. فراق الالف مثل فراق الوطن. قرر ابو الفهم الانتقام من كل مؤسسة شارع شيكاغو. كان يعرف اسرارا عميقة تخص اسرا شامية عريقة.

حين مر رئيس محكمة النقض قال له، انت زعيم العصابة وسوف انتقم منكم. اقسم امام الموظفين من قضاة ومحامين ومعقبي معاملات ان يسكّر تلك الحنفية التي يسيل منها الذهب، والى الأبد. يقصد بالحنفية الأموال الحرام التي تجمع من شارع شيكاغو: رشاوي وخوات وأسهم،

تديرها اصابع خفية، تحوك مؤامراتها ما بين القصر العدلي وأروقة الشارع. الحياة ليست ما يظهر لنا فقط، بل ما يخفى منها ايضا.

لم يلتفت احد الى وجود قانون في الدستور يمنع اقامة اي خمارة على بعد مئة متر من الجامع او المسجد. او لم يرغب احد بالالتفات الى ذلك، وتجوهل العرف تماما. الجميع مستفيد من تعريص شارع شيكاغو. وزارة الأوقاف لم تنظر الى هذا القانون، علما ان نهاية شارع شيكاغو تبعد اقل من تسعين مترا عن مسجد الطاووسية. خلال اربعين سنة من عمر شارع شيكاغو كان الأمر مغطى عليه. اضافة الى ذلك فشارع شيكاغو هو من ممتلكات وزارة الأوقاف وتؤجر مرافقه لحسابها. كان الكل يعرف هذه الحقيقة، محامين وقضاة وموظفين. بداية الشارع تبعد عشرين مترا فقط عن المسجد، ونهايته تسعين مترا. اي ان الشارع مغلق تماما لمثل تلك البضاعة. تلك كانت نقطة البداية ومقتل الشارع.

قدم معقب المعاملات ابو الفهم طلبه في اغلاق شارع شيكاغو، بعد ان ودّع اصدقاءه وتاب توبة نصوحاً في الجامع الأموي على يد شيخ هناك. تاب كلية عن الشرب. تلك معلومات عرفتها لاحقا بعد استقراري مع فاطمة ومجيء الطفل الأول.

عرف الجميع انه جاد في القضية، لذلك راحوا يحتاطون له. أوصوه بالسكوت. رفض ابو الفهم بشدة، وكان يحلم بالانتقام من ماضيه، ومن ناس ذلك الماضي، وعلى رأسهم عصابات القصر العدلي. وعدوه باعطائه اموالا فرفض، وهو يتذكر معاملتهم له واحتقارهم لظروفه. هددوه. ركب رأسه مدفوعا بثأر محب. لم يبق امامهم سوى قتله. سمع تلك النية عبر أذنة آخرين، ومعقبي معاملات ناقمين على مهنتهم. ولكي يحمي نفسه

من القتل ضرب شرطيا في القصر العدلي امام حشد من الشرطة، وطلب منهم وضعه خلف القضبان. التوقيف هو الحل. لم تمض سوى ايام حتى اغلق شارع شيكاغو، لكن ابو الفهم لبث في سجنه.

هل مات ام خرج بعد ان تغيرت الحياة؟

الأخبار عن ذلك لا تفيد شيئا.

* * *

المرأة الغامضة راحت تميل مرة الى سامية ومرة الى الوهم. صار منذ اسابيع ينام على صوتها ويفيق على صوتها. أدمن النبرات والضحكات والهمسات واللهاث. ظل يلح ويلح على وقت الوصال والكشف، وكان يمنّي روحه بفتاة جميلة اختارته لمواصفاته المتميزة، كما آمن بذلك مع نفسه. الا يمتلك خبرة طويلة بحياة دمشق السرية والمغامرة والبعيدة؟ الا يمتلك اصدقاء دهاة في السكر والخمرة والسفر والثقافة؟ بينهم فنانون مثل صابر، وصحفيون مثل اكرم، وغير ذلك؟ ثم اليس هو معروفا بطول مسلوته بين الأصدقاء الحميمين وربما تلقفت الخبر واحدة من الجميلات فأحبّت ان تجرب هذه المغامرة الهائلة؟ كل ذلك جائز. والشيء المؤكد لديه هو انها تعرفه او تعرف على الأقل وجهه.

صارت معرفة السر تتوازى مع فضول اقامة علاقة مع امرأة غامضة. هجمت الغيوم السود ونزل المطر، وتبللت الأشجار المقابلة لنافذته ودكنت اغصانها الجرداء. اختفت الزنابير والبق والحمام، وصارت مسائل المياه ترسم الوانا بنية على اللحاء. كان ينظر امارات الشتاء وهي تطوّقه من كل جانب. أعد صوبة المازوت وهيأ الدفء لأحلامه ليلا

ونهارا، وكان التلفون الأحمر المسترخي على الطاولة الصغيرة يقيس نبضات الأنثى على الجانب الآخر. اصبحت نار المازوت الهية يزجي بها الوقت. تنتصب وسط غرفته. انبوب حديدي يميل الى السواد، عليه رسوم بديعة، تتوسطها زجاجة النار التي كان يراقب من خلالها اللهب المخضر المتصاعد الى فوق.

كثيرا ما جلس في السرير يحدق في تلك البؤرة الغامضة وهي تمده بالخيالات. هل يمكن لبقعة مضيئة من النار ان تكون عالما كاملا؟ يدخل في الأذرع الحمراء ويتلوى معها ليصير ازرق البشرة. يحس بالحرارة ويحس انه يحترق ويتحول الى غازات لا هيئة لها. اليست الحياة هكذا؟ بعد سنين سيموت ويتحول جسده الى هباء. لن يبقى منه سوى قصصه. ساعات كان يقضيها مراقبا تلك الشاشة المدورة الملتمعة وسط الغرفة. ساعات غابت بها الزوجة والأبناء والشلة والعالم، لم يبق الا رؤوف وحيد الدين الذي صار لهبا. تلك هي الوحدة اذن؟ الوحدة لا الوحدانية. الوحدة حين لا يسأل عنك احد، ولا يهم مصيرك كائن في الوجود. تغيب او تحضر لا فرق. تود لو تقف الحياة عن مجراها لأنك لا تكون موجودا في تيارها. تود ان يفتقدك شخص ما، رجل او امرأة لايهم. تود أن تعرف أن كائنا ما فكر بك، اشتاق اليك، سأل عنك. اما الوحدانية فأمرها مختلف. الاكتفاء. تلك هي. لا تريد شيئا، لا ينقصك شيء، لا تحتاج الى كائن في الوجود. اختفى ذلك التوق الى الذهاب الى مشرب الكرنك وسط المرجة. غابت عن ذاكرته ملامح رفيقه اللوطي الذي كان يفلسف له حالة الوحدانية، في ذلك التخم البعيد بين الأنوثة والذكورة، او في نقطة الاكتفاء والوحدانية التي يتمتع بها صاحبه.

اعطته المرأة الغامضة، في صباح مبرقع بالغيوم، طرفا من الخيط.

قالت له انها تدرس اللغة الانكليزية في معهد اللغات في ركن الدين. ذلك البناء المؤلف من خمس طوابق وكثيرا ما شاهده وهو يمر بالسرفيس من مساكن برزة نحو البلد. قالت له يوما ما سأقابلك هناك، اما متى وكيف فذلك ما لم تصرح به. سيحصل قريبا قالت له. مساء ذهب الى تلك البناية وظل واقفا يتفرج على الفتيات الداخلات والخارجات. كلما لمح امرأة جميلة ودّ لو تكون صاحبته. المرأة الغامضة رفضت حتى اعطاء رقم عمرها. لم ير سامية، رغم انه تمنى ان تكون هي التي تتصل. كما لم ير اي امرأة يعرفها وهذا ما ضاعف من شكوكه. قدّر ان الأمر لايعدو لعبة تلعبها معه امرأة ما، لا تدرس في معهد اللغات ولا تود مقابلته على الاطلاق. انها تلعب بأعصابه فقط، لكن لماذا؟ وفي تلك الأيام، لاحظوا استهلاك برهان للسجائر.

بدأ يدخن علبتين من الحمرا الطويلة القاتلة التي يزرع تبغها في ضواحي جبلة. وجبلة من اعمال اللاذقية في ساحل البحر. صار يدخن بشراهة، وصار قلقا، ولم يعد يراه اصحابه. احتجب خلف تقمصاته وأوهامه، وكف عن الأكل.

روى لهم ماحصل له بعد ذلك، وكانوا جالسين في قصر البلور، يأكلون الضفادع المحمصة التي اصطادوها من نهر بردى القريب، ويحتسون العرق الميماس. كان جمر الفحم يتلظى في المنقلة الهائلة التي وضعوها قرب طاولتهم. قال المعلم، وقصّخون شارع شيكاغو بيط»: لم أصدق انني سألتقيها في الساعة السادسة من ذلك الخميس البارد، كما حددت هي بالضبط. قلت لها لكنني لا أعرفك؟ رغم ان ذهني لما يزل

منصبا على سامية الجميلة، ذات اليد المكسورة. قالت انت ماذا ترتدي، انا من ستتعرف عليك. قلت لها جاكيتا جلديا من الفرو، وتطوّق عنقي لفحة صفراء. قالت الاشارة واضحة، انتظرني في السادسة امام باب المعهد.

في اليوم التالي فاق منذ السادسة صباحا.

كانت العتمة تنسحب شيئا فشيئا من اغصان الشجر، والسماء تتوضح قليلا قليلا، واصوات عصافير نائية متقطعة رنانة شجية، تنطلق من كوى الجدران والأغصان الجرداء، معلنة وصول اشعة الشمس الى سفوح قاسيون. التمعت ابراج التلفزيون، وتذهّبت حافات الجبل المستوية، وتصاعدت أخيلة ابناء المدينة في السماء الزرقاء. كما سمع جاره يستيقظ، وجارته تطرقع في الحمام، غير انه لم يمتلك الرغبة في التلصص عليها. جهز حمامه وسخنه، وأفطر زبدة مع مربى المشمش، مع كأس مترعة من الشاي. حلق ذقنه كما لو ان الموعد بعد ساعة فقط، لا بعد اكثر من عشر ساعات. كان يوما جديدا في حياته، سيميط اللثام عن سر هذه المغناج التي غزلت أحلامه على هدي صوتها، خلال عشرات الليالي والأيام.

لم يتقمص حينها سوى ذرات سلك التلفون، وكيف تسري حين يهجم الصوت، وريشة رآها تهبط من الشجرة التي تدفق صمتها من شباكه حين هوّى الغرفة، وعصفورا كان يقف على هوائي التلفزيون وهو يتطلع في الشمس الوليدة من خلف التلال البعيدة، ومياه التواليت وهي تغور في الأسفل وتسير وسط الدهاليز المظلمة، مع الصراصير الضخمة والفئران الليلية ورائحة الأمونيا المعقمة وطحالب الأعماق السوداء الملوثة

ببقايا الطعام. وتقمص ايضا، وبصمت، ذلك الصرصور الذي وجده أعلى المغسلة وهو يتنصت الى حمام جارته، بصمت ايضا. لقد ذكّره بوجه عشيق حبيبته، المصوّر الذي رآه جالسا معها في فندق الشام خلف العمود الضخم، وسببت غيرته النارية فضيحة لا أول لها ولا آخر. قبل كم من السنين حدثت القصة؟ غاب هذا عن عقله. عدا ذلك، لم يكن امامه سوى الانتظار. الجالسون في مقهى الروضة لم يفكر بهم، كما لم يفكر برواد مقهى الهافانا ولا المتسكعين في شارع الحمراء، وهم يصطادون البنين والبنات لملذاتهم. غابت سرة فاطمة وجيدها وربلتا ساقيها وعانتها الواسعة. ساحة المرجة تلاشت عن ذهنه. هي وجنودها واعرابها وكرنكها ومياه بردى، الملوثة بالجراند والبلاستيك. كتب قصيدة عنهم، وعن نسائهم، وحبيباتهم، خلال انتظاره الصعب والممض: صعاليك دمشق: الشاعرة التي ترقص خمس ساعات متواصلة، بشعرها الأسود الطويل وعينيها المتوهجتين من خمرة الشعر، وتحوّل جسدها الى اشعار طائرة الى النجوم. اناملها قصيدة الى المشتري. جيدها المتلع قصيدة الى المريخ. ساقاها البضان معلقة متوسطة الطول الى المجرات البعيدة. الشاعر الذي يعزف همومه على البزق، ويرهق سامعيه بصوته المحشو بالحسرة والحنين الى جبال ابعد من مجرة. لايهم ان يكون مهرجا يوما وممثلا يوما ومغنيا يوما وشاعرا في جميع الأوقات. ذئب الخمور، زكي، نموذج آخر من صعاليك دمشق. يحب السمك الحاد وصلصة الثوم، مطفأة برحيق الكرمة الأبيض، المتوضع في باب توما. يترنح بين السبع بحرات والجسر الأبيض، باحثا عن فتاة احلامه المخبأة وراء ارقام التلفون. يطلق ضحكته الطفولية كأنما يغازل بها اشجار المرجة وضفاف

بردى. ضحكته تغازل النساء اجمع. الكاتبة المعبأة بالأكاذيب عن عشاقها، والشقراء التي تترجم كل يوم حكاية، لا لشيء الا لتغيظ طليقها. الممثلة الناعسة المزدانة بأشرطة الجوائز. والصحفية الهاوية للرقص حول اضواء الشموع، مدخّنة الأركيلة كما لو انها قطار الحجاز ذاهب الى عمّان.

لكن في هذا اليوم ظل امامه وجه واحد غامض، هو وجه فتاة التلفون التي سيراها بعد ساعتين فقط. الكولونيا ضرورية لاغراء النساء. رش على ابطيه وعانته ووجهه وخلف أذنيه، وأخذ الاحتياطات لأسنانه. بيّضهما، وعطّرهما بقشور البرتقال، ثم شذّب شاربيه وحاجبيه. عقد العزم حقا على ايقاع الفتاة في حبائله. لن تقوم لها قائمة بعد اليوم.

ركب سيارة السرفيس المتجهة الى ركن الدين.

شاهد مشحات الغيوم في السماء، وذلك النور العجيب، نور الأصيل وهو ينسحب مثل طاووس من أعلى البنايات وذرى أشجار الأكاسيا والدفلى، عند شرفات المنازل وقمم قاسيون المطلة على الغروب. لم يبق على الموعد سوى ربع ساعة. وصل معهد اللغات، ووقف جنب العمود الكهربائي. الطالبات ينصرفن او يدخلن البناء، وهو متوجس، ومستوفز وفي ذهنه صورة سامية. في الأيام الأخيرة طابق تماما بينها وبين فتاة التلفون. دقائق وتأتي اليه حاملة يدها المجبسة. لكن لا، مر وقت طويل على ذلك، لابد انها شفيت الآن. هناك عدد من الشباب ينتظرون، قريباتهم او خطيباتهم، وثمة سيارات تاكسي متوقفة على الجانب الثاني من الرصيف. سألته قبل يومين كيف هو شكلك، فقال لها

انه اصلع وذو كرش وقصير، وهي مواصفات لا تنطبق عليه بأي حال. اتجه قلبه الى قادمتين من الباب، ومن ذلك الاعتصار المفاجئ في قلبه حدس ان واحدة منهما صاحبته.

لم تكن سامية اذن. ليس بينهما من تشبه سامية. واضح انهما انتبهتا اليه، فقد انفصلت الصغيرة عن صاحبتها ومضت. اتجهت الكبيرة اليه وسألته بابتسامة عريضة: رؤوف اليس كذلك؟ قاسيون انقض عليه. ساحة المرجة فتحت شدقها والتهمته. صبت على رأسه مياه بردى الباردة الملوثة بالأشنات ومخاط الضفادع. اما تقمصه اللذيذ فانصرف عنه كما لو كان وباء كاسحا. هو بمواجهة هذه القردة البشرية كما وصفها في سره. قردة ذات اسنان بارزة وطويلة جعلت فمها ينط الى الأمام. عيناها منتفختان وبارزتان كأنهما ثمرتا دراق. اما صدرها فيشبه قربتين مليئتين باللبن الحامض الذي يشتهر به الغجر والبدو القاطنون حول الست زينب. سخرية، حين قارن هذه المخلوقة مع سامية، مع تلك الصور الملونة التي قضى ليالي يحلم بها ويصوغها على هواه. مع فاطمة يستحيل المقارنة. هذا تجديف.

والآن؟ سأل نفسه بعد ان التقاها، وسلم عليها ومشيا باتجاه الأوتوستراد.

لم يعد التملص ممكنا، وتوصل الى طبيعة جديدة في عمره هذا، وهي انه لا يود التورط في علاقات مع نساء غير جميلات، او لا يعجبنه بخصلة من الخصال على الأقل. على الأقل انف جميل، مؤخرة ممشوقة وبضة، صدر عامر، افخاذ مليئة، عيون تنادي الذكر، او اي شيء من هذا القبيل. اما هذه القردة فلا تمتلك ما يغريه. سيذهب بها

الى محلة القصور. يعرف هناك بارا اسمه القصبجي، ويبدو ان صاحبه استوحاه من الحان الموسيقار محمد القصبجي، الذي لحن لأم كلثوم كثيرا من الأغاني ايام شبابها. انه يقدم البيرة والخمرة. يجلس فيه الصعاليك الكبار، والموسرون. اصبح المهم استجلاء سر هذا الاصرار على التلفون، ومن اين جلبت رقمه ومن اعطاها اياه؟ وربما يقضي معها ليلة واحدة. ومشرب القصبجي قاعة طويلة. ارضية ضيقة، تصطف الطاولات على طول الجدارين، ولا يبقى سوى ممر ضيق، ينتهي بالبار، الذي جلس عليه رجل بلي بوي، يبدو أنه يعرف اغلب الرواد ويكتشف الوافدين الجدد. أجلسها في الزاوية. طلب كأسي نبيذ احمر مز، مع موالح وسلطة ايطالية، وكان ينظر الى المرأة بتركيز شديد، ويحاول النفاذ الى دواخلها. احس انه لم يعد هناك ما يربطه بها، كل المواضيع التي تحدثا بها عبر التلفون تبخرت. الباراسايكولوجيا، العلاقة بين المرأة والرجل، الثقافة، المسلسلات التلفزيونية، والتقمص، كلها تبخرت في الفسحة التي تتموضع بينهما. انها ليست جميلة، وليس هناك ما يغريه كي يواصل اللعبة. شربا وجاملها وجاملته، ودخنا بنهم تعويضا عن انقطاع الحديث وجفاف الجلسة. شربا كأسين جديدين، ثم ثلاثة كؤوس، احس بعدها انه راح يلمح فيها بعض الأنوثة. توهجت عيناها، وصارت حدقتاها واسعتين وحارتين وتنضحان بالشهوة.

اكتشف بعد الكأس الرابع ان شفتيها شهوانيتان ومثيرتان. اما في الكأس الخامس فقد اخبرته عن سر الاتصال. لهما صديق مشترك يعمل في مديرية الاعلان التي تشتغل هي فيها. وذات يوم كانا يجلسان في مطعم القنديل، وكان ثمة امرأة شبه مجنونة جاءت الى صديقها وراحت

تتحدث عنه، هو رؤوف. حكت كلاما كثيرا اقله انه سكير كبير، ويضحك على عقول النساء، وصعلوك لا يملك ضميرا، هذا عدا انه ليس من اهل البلد، فأبواه تحدرا من الشمال، وهذا ما تكشفه عيناه التتريتان كما عبرت المجنونة عن ذلك. أخذ صديقها يسرد لها نتفا عن شارع شيكاغو وحمامات الشام ومجالس الصعاليك ونزواتهم، وهو يفخر امامها بكونك صديقه، قالت المرأة. وهذا ما جلب لي الفضول. وذات يوم وبينما كنا في المديرية جاء واتصل بك من تلفوني، وقد ادرت له القرص انا فحفظت الرقم. قلت لنفسي اريد ان اتعرف على هذا الرؤوف، ملك الصعاليك، واشهر من نار على علم في خمارات دمشق وباراتها وملاهيها، الذي قيل انه يخلط الحياة بالفن، والثقافة بالضحك، والحب بالجنس، والتاريخ بالزائل في هذه الدنيا. وهكذا كان.

- من هي تلك المرأة؟

- انها نصف مجنونة، صارحتني ذات يوم انها تحبني وتريد الزواج مني فرفضتها.

- لماذا؟

- لا اخفيك القول، أنا لا اتزوج امرأة مرّ عليها نصف رجال دمشق.

- هل هي كذلك؟

- الرجال يتكلمون، وحين يزداد الكلام ترخص المرأة. تقع في شبكة محكمة من أيادي الرجال. يدوّخونها، فالجميع متأهب لذلك.

- ألا تؤمن بحرية المرأة؟ رغم كل قراءاتك؟

- اجل ولكننا نعيش في مجتمع ذكوري. على المرأة ان تتحرر

بعقل. التهور يقود الى ساحة المرجة.

- ماذا تقصد بساحة المرجة؟

- انها تمتلئ بعشرات الفنادق التي تبيع أجساد النساء مثلما تبيع كؤوس العرقسوس.

شعر انه تكلم كثيرا وباح بما في نفسه كثيرا، وان هذه الليلة انتهت، خاصة وانه اكتشف اشياء مثيرة في هذه الأنثى الجالسة امامه. لفظته الدقائق الصامتة الى بحر التقمص مرة ثانية، فدخل من الصدر، ونزل الى الثديين فوجدهما عامرين ثم نزل الى السرة ولعق بؤرتها، ودخل الى الغابة. ان هناك غابة من التنوب العالي والخشن، وتلك التربة الممهدة الملساء وذلك الوادي في هذا المساء، والليل يغوص في اللحم الأبيض المائل الى سماء، واللهاث يزداد، والشبق يسح ماءه على بطن رؤوف وصدره ومسلوته. يقرر المضي الى برزة ليكمل تجسداته هذه المرة. قال لها نمضي مشيا الى هناك؟ قالت الى اين؟ قال بيتي؟ قالت لا، لا يمكن للمرأة ان تذهب الى بيت الرجل من الليلة الأولى للتعارف، ان هذا لا يتم الا في اوربا. نحن في القصور وليس في اوربا. قال لها هذه عقلية قديمة. نذهب مشيا وتزورين البيت، اطلالة فقط ثم تمشين. نشرب القهوة، قالت، وادرك ان هذا عرض للموافقة، ففي كل مرة يدعو امرأة الى البيت يقول لها نشرب القهوة، تنتهي اخيرا في السرير. هذه براعة مجتمع يعرف كيف ينافق. وفي البيت مددها على السرير قبل ان يضع القهوة على النار. تحول هو الى مسلوت بطول قاسيون. مص شفتيها، ورضع ثدييها، ونام فوقها، ودخلا بقبلة عميقة، مابين رص ودك ونزول وصعود، لكن الملابس كانت عائقا. مد يده ليزيل ذلك العائق بينهما.

أبت وصحت من القبلة وقالت لا. لا قاطعة لا تقبل التأويل. تلك اللا التي تقولها النساء احيانا دون اي سبب.

يقبلن بالنوم في سريرك ويقبلن بيدك وهي تجوس في كل مكان، لكن حين تحتد رجولتك وترغب بالايلاج يفقن من سباتهن ويقلن لا. لماذا؟ لا تعرف. يتذمر رؤوف. اذا لم تكوني راغبة يا اختي، يقول في مجلسهم غاضبا، فلم وافقت على المجيء الى بيتي؟ ولم تمددت على سريري؟ ولم سمحت لي بملامسة كل اعضائك؟ واخيرا لم انت مرطبة مثل نهر العاصي؟

تلك عجائب المرأة ايها الصعاليك، فلا تستغربوا.

- ان نزلت عنك لن اراك ثانية.
- ارجوك انزل لا استطيع. مرة اخرى.
- لن يكون هناك مرة اخرى.
- لا استطيع.

ومنذ تلك الليلة لم يرها. أوصلها الى بيتها في حي برزة البلد. خابرت بعد ذلك كثيرا فلم يعطها ريقا حلوا. انك لست من مزاجي، أوضح لها. وقال لها انت جافة ولست انثى. تباعدت اتصالاتها حتى انقطعت دون ان يأسف عليها. ساءت حالته الصحية ووصل تشمع كبده الى درجات صعبة. كما ترك التدخين، الا في حالات التجلي القصوى، اي ساعات التقمص العالي الذي ينفذ فيه الى دواخل الأشياء. اصفرت عيناه، وكمدت شفتاه، وراح الكأس الواحد يرهق ذاكرته وطبيعته. لكنه ظل حاضرا في المجالس. حكايات شارع شيكاغو، وشخصيات ذلك الشارع مثل ابو الفهم وخود عليك وماغي البارميد وابو واكيم. ثم نسيم

بيك البغل الذي ترك البلد ومضى ليموت في قبرص، جنب أمواله المودعة هناك في أحد المصارف.

اما مصطلح المسلوت، اي عضو الرجل الطويل، فأصبح لازمة يرددها زكي دائما في كل موقف وزمن. اصبح شبيها بأبيه في أواخر حياته، وهو ما جعل من الموت هاجسه الدائم. بل وقادته الذكريات والحكايات التي سمعها في محيط العائلة الى العيش في الماضي، في تلك الأيام التي جاء جده فيها الى دمشق مع ابنه وحيد الدين وأمه لأداء فريضة الحج. كان جده يعاني من تدخل الروس في مصالحه، معامل الصابون والشموع التي تتطلب ضرائب ورشاوى لم يعد يحتملها. وأول ما لفت نظر الجد في دمشق، وقد جاءها حاجا، رخص الشحم الذي يستخدم لطبخ الرز البخاري. اعجبه هواء الشام وايقاع حياتها الهادئ على ضفاف بردى ووفرة خضارها وفواكهها وجمال نسائها وكثرة علمائها، ففي كل جامع مذهب وحديث وتلاوة قرآن. وكانت روسيا تموج بالثورات والتحولات واضطهاد الشعوب. التقى ايضا بطلاب من مدينته اندجان، يدرسون في باحات الجامع الأموي العلوم الشرعية، فحكوا له حكايات طويلة عن الحياة هنا. منذ تلك الأيام قرر الجد تغيير حياته كاملة. ما ان عاد الى اوزبكستان حتى باع معامله وأملاكه وحولها الى ليرات ذهبية. عمل أحزمة له ولولده ولامرأته، خبأوا فيها الليرات وعموا شطر الشام. استغرقت الرحلة ثلاثة شهور، وصادف وصولهم الى دمشق أول ربيع قامت فيه الحرب العالمية الأولى. كان رؤوف يقول لو تأخر جدي اسابيع في قراره لتغير مصيري كله. لما ولدت هنا. لما عرفت فاطمة ولا ماغي ولا سامية ولا فتاة التلفون. كنت حرمت من طعم الفول النابت

والترمس وصبار الربوة. لكن لكل شيء قدر ومصير، مخطط مسبقا في سماء البشر.

اشترى جده دارا عربية واسعة في منطقة عين الكرش. وكانت دمشق غير هذه فالايقاعات تختلف. كان فيها الشركس والأفغان واليهود والأتراك والايرانيون، ومن كل الملل والطوائف، يتركز جلهم في داخل السور، وفي المناطق القديمة مثل عين الكرش والبحصة والشيخ محي الدين. وأول شيء فكر فيه جده هو كيف يجعل من ابي رؤوف صاحب كار، ليعده لمشيخة الجماعة. وضعه في مشغل يصنع المطرات للجيوش، ثم اتقن المهنة وأبدع فيها، ثم اسس معملا للشمع، وهو ما لم يكن معروفا في تلك الأيام في دمشق. كان معمله قريبا من سوق الخيل، الذي لا يبعد كثيرا عن حمام القرماني وساحة المرجة. الا انه باع معمل الشمع بعد ان دخلت الكهرباء كل بيت وشارع وزقاق واشترى متجرا للصابون وأقام علاقات واسعة مع تجار حلب. على اية حال ذهب كل ذلك التاريخ الى مثواه الأخير. بعد ان ماتت فاطمة بقي اكثر من سنة وهو يراها في احلامه. كان يحبها. الفة عشرات السنين. يكون سائرا في شارع من شوارع الشام، يحدق في الوجوه والبنايات، وواجهات المحلات فيراها فجأة أمامه، قامتها القصيرة وعينيها السوداوين، وتلك الابتسامة الحاذقة التي توجهها اليه، من بين الجميع. يطير من الفرح. هاهي أخيرا. لم تمت. لم ترحل. يركض نحوها. يمد يديه اليها. يمسك أصابعها. يقبل سلامياتها وأظافرها وزغب ساعدها. يرتفع الى عينيها فيجدهما نديتين. انها مشتاقة له. يعانقها وسط الشارع، غير عابئ بعيون المارة. ثم فجأة تضيع من بين يديه. ينظر يمينا وشمالا، فلا

يجدها. تختفي بين الجموع. يركض. يحس بالأسف لفقدانها، وقلبه يعتصر ويكاد يخرج من فمه. يحدق في الجهات فلا يراها، حينئذ يفيق من النوم، ويبكي. لكن رغم بكائه فثمة احساس بالرضا يظل يملؤه طوال يوم أو يومين. الم يرها ويتكلم معها ويلمسها؟ حتى لو كان ذلك في الحلم فقط. لايهم. فقدان الالف مرعب. شخص تعود عليه المرء عشرات السنين، يختفي فجأة من حياته، هل يمكن تخيل الأمر؟ مرة كان جالسا على شاطئ نهر، وأمامه امواج ناعمة وشمس دافئة وطيور وأشجار من الأثل والطرفاء والصفصاف، وكان ممتلئا بمشاعر الحب والسعادة. رآها امامه. لكنها تجلس على الضفة الأخرى. تجلس باسمة، وتلبس تلك التنورة الطويلة المشجرة، والكنزة المخرمة التي تكشف قليلا من جيدها وشعرها الخرنوبي الذي يتهدل على حاجبيها.

* * *

انها لم تمت اذن.

نادى عليها فأومأت له. قالت له ايماءتها ان تعال. فما كان منه الا ان نزع ملابسه وغطس في النهر. لم يصدق انه سيصل الى شاطئها. فرح هائل في داخله. ها هي اخيرا لقد وجدها. لم تبتعد عنه. لم تفارقه مطلقا. كان بهذه الأفكار يجذف نحوها، نحو شجر الصفصاف والطرفاء والعشب الأخضر. ما كاد يلمس طين الضفة حتى فزع من نفسه. لم يكن هناك أحد. صحراء فقط. لا بشر في الجهات. وكان يرتدي ملابسه ويمسح دموعه بكفيه. اختفى النهر، واختفت زوجته، ورأى من خلال الضباب، بقعة من الضوء وسط الظلام.

اكتشف انه لم يزل في سريره، وتلك البقعة كانت مدفأة المازوت التي نسي اطفاءها.

كثيرا ما فكر ان حياته في الشام انتهت بعد فراقها.

على الأقل ظل هذا الهاجس ملازما له اشهر بعد وفاتها. لم يعد اي شيء يهمه. المدينة كيس فارغ. المدينة جعبة معبأة بالهواء والأوهام. عاش تلك الأوقات في رأسه فقط. اي انه لم يعد يرى او يحس بما حوله. صوتها يطوقه من كافة الجهات. كان طاغيا على الموسيقى والسيارات والعصافير والقطارات ونداءات البشر وارتطام البرق ببعضه والريح العاصفة في الشجر. كان صوتها مخدرا لا ينام الا حين يتغلغل في ثناياه. الشيء الوحيد الذي كتمه رؤوف عن الجميع هو ما عاناه من فراق زوجته. لم يتحدث كثيرا عن القضية، اثناء بوحه الدائم. كما لم يحدثهم قط عن اي من قصصه الخاصة معها. ظل ذلك الجانب من حياته مغلقا. لذلك كانوا يشجعونه على خوض مغامرات نسائية تنسيه عزلته وزوجته المتوفاة.

أحيانا يستعيد الرجل حيويته بعلاقة مع امرأة. رغم ان تلك الحيوية يمكن ان يقتلها عشق امرأة ايضا.

هل مات رؤوف حقا بسبب فاطمة، ام ماغي المعاصرة؟

هل وصل تشمع كبده الى درجة لا تحتمل دون ان يعرف؟

هل رأى في تمثال زنوبيا وجه الموت الكالح فجذبه اليه؟

هل مات من العشق؟

من فراق الأحبة الذين سكنوا أحلامه؟

تلك الأسئلة وغيرها، كرروها مئات المرات.

لم تصل الشلة، مطلقا، الى اجابة قاطعة.

في قاع المدينة، حياة أخرى ، تتحرك فيها أشباح ناس مسكونين بالوجد الخيّامي، يطرحون الأسئلة الصعبة ولا يجيبون عليها إلا بمزيد من التدمير الذاتي، والبحث الهائم عن ملذات تهدهد الوجد الذي يسكن عظامهم، ويسوقهم الى البحث عن الصور والذكريات والأفعال والحكايات والغوايات الحسية المحمومة، التي تبكر وتعاند وتحلم وتحطم وتتخيل وتغامر، في تحد وسباق مع سيّاف الموت الأعمى.

عوالم تمور وتهدأ ثم تنفجر بايماءة أو كلمة من امرأة يلفها الغموض.

ISBN:2-84305-688-X